

العَصْرُ وَآثَرُهَا فِي الْجَيْشِ الْمَمْلُوكِيِّ

تأليف

دكتور أحمد محمد الكريم سليمان

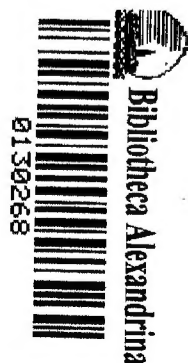
كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع



الْحَيَاةُ وَالثَّقَافَةُ فِي الْجَيْشِ الْمَلِكِيِّ

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : ١٥٠٠
زمن التسجيل : ١٤٧٨٢

تأليف

دكتور أحمد محمد الكريم سليمان

كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

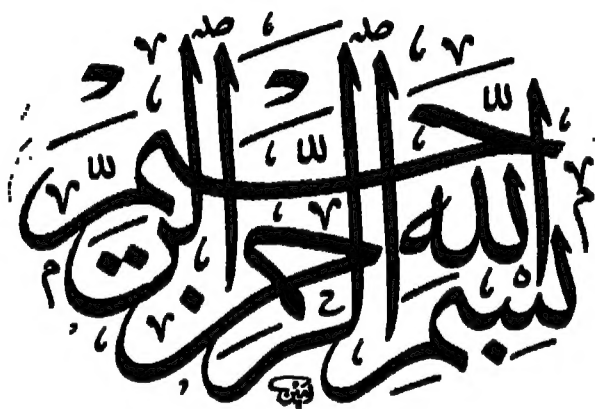
الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر والتوزيع



محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة ٧ — ٩

البحث الأول

فرقة البحرية فى الجيش المملوكى ١١ — ٢٩

- عناصر الجيش الأيوبى: الترك — الأكراد — التركمان ١٣
- ازدياد أهمية الممالك الترك فى عهد الكامل . . . ١٤ — ١٥
- اهتمام الصالح نجم الدين أيوب بالممالك الترك . . . ١٥ — ١٨
- واطلاق اسم البحرية عليهم ١٥ — ١٨
- السلطان عز الدين أيبك وطرد الممالك البحرية الى الشام ١٩ — ٢١
- عودة البحرية الى مصر واشتراكهم فى القتال ضد المغول فى معركة عين جالوت ٢٢ — ٢٣
- مقتل السلطان قطز وتولية بيبرس البندقدارى زعيم البحرية عرش السلطنة فى مصر وتأسيس الدولة المملوكية الأولى ٢٤ — ٢٥
- فرقة البحرية فى عهد السلطان قلاوون ٢٥ — ٢٦
- تطور وظيفة فرقة البحرية حتى منتصف القرن التاسع الهجرى . تركيز البحرية فى حراسة القلاع والحصون ٢٦ — ٢٩

البحث الثانى

الواقعية فى الجيش المملوكى ٣٣ — ٥٤

- اعتماد الجيش المملوكى منذ عهد الظاهر بيبرس على دعامة أساسية من عنصر القبجاق ٣٣ — ٣٥

صفحة

العناصر الوافدة الى مصر	٣٥ — ٥٠
الخوارزميون	٣٥ — ٣٧
الأكراد الشهرزورية	٣٧ — ٣٨
المغول — الأويراتية	٣٨ — ٤٨
سلاجقة الروم	٤٩ — ٥٠
الوضع العسكرى للوافدية فى الجيش المملوكى	٥٠ — ٥٤

البحث الثالث

الصراع بين الترك والجراكسة فى

الجيش المملوكى الى نهاية عصر الظاهر برقوق ٥٥ — ١١٥

أهمية عنصر القبجاق فى الدولة المملوكية الأولى	٥٧ — ٦٠
ظهور العنصر الجركسى منذ عهد السلطان قلاوون	٦٠ — ٦٢
المحاولة الأولى للجراكسة للتسلل الى السلطة	٦٣ — ٦٥
موقف الجراكسة من السلطان حسام الدين لاجين	
وفشل انقلابهم عليه	٦٥ — ٦٩
اعتلاء بييرس الجاشنكير زعيم الجراكسة عرش السلطنة	٧٠ — ٨٤
عودة الناصر محمد الى عرشه واضطهاده الجراكسة	٨٤ — ٨٩
عودة النفوذ الجركسى الى الظهور على يد الأمير غرلو	٨٩ — ٩٠
الأمير يلبغا الخاصكى يكثر من شراء الجراكسة	٩٠ — ٩٤
الأمير برقوق والانتصار الحاسم للجراكسة على الترك	٩٤ — ١١٥
كفاح برقوق حتى اعتقاله عرش السلطنة فى مصر	
والأمراء التى حيكمت ضده	٩٤ — ١١٤
التعصب العنصرى فى الدولة المملوكية الثانية	١١٤ — ١١٥

مقدمة

على الرغم من الدراسات الكثيرة والمتنوعة التي حظى بها تاريخ دولة سلاطين المماليك في مصر إلا أن المجال لا يزال خصباً لدراسات أخرى جادة ، وبخاصة فيما يتعلق بالجانب العرقي العنصري وأثر النعرة العنصرية في تشكيل تاريخ تلك الدولة . ذلك أن المماليك بوصفهم عنصر دخيل على رعاياهم في مصر والشام حرصوا على الروابط التي تربطهم بأصولهم من ناحية ، وبيعضهم البعض من ناحية أخرى . ووجدوا في هذه الروابط ما ينشدونه من أمان وطمأنينة نفسية . وهكذا قامت دولة المماليك الأولى على أساس دعامة أساسية من عنصر القبجاق ، في حين قامت دولة المماليك الثانية على أساس دعامة من عنصر الجركس .

على أن الحال يقتضى القول بأن المماليك سواء من القبجاق أو الجراكسة سمحوا لعناصر أخرى من أجناس مختلفة بالانخراط في طبقتهم الحاكمة ، وإن كانت هذه العناصر قليلة العدد بالنسبة لعنصرى القبجاق والجراكسة .

ويتضمن هذا الكتاب ثلاثة بحوث تدور كلها حول التباين العنصرى في البناء المملوكى وأثره في طبيعة العلاقات التي سادت بين مختلف العناصر التي تألف منها هذا الجهاز . فالبحث الأول يعالج فرقة البحرية في الجيش المملوكى ، وهى الفرقة التي أنشأها الصالح نجم الدين أيوب وظلت تمثل عماد الجيش المملوكى لفترة طويلة . والملاحظ على هذه الفرقة أن مؤسسها اختار الاعتماد على عنصر القبجاق من الترك في البداية لوفرة هذا العنصر في الأسواق ورخص ثمنه

بالنسبة لباقي العناصر • وهكذا قامت دولة المماليك الأولى على أكتاف الأتراك القبجاق ، ومن هذا العنصر كان السلاطين المؤسسون لتلك الدولة ، فساروا بدورهم على نفس السياسة في الاعتماد على بنى جنسهم القبجاق ، هذا وإن كانوا قد سمحوا بشراء مجموعات قليلة من القطار والجراكسة وفقا لظروف وأحوال السوق • ومن بين سلاطين الدولة الأولى كان السلطان كتبغا من أصل مغولى ، وببيرس الجاشنكير من أصل جركسى •

أما البحث الثانى فهو عن الوافدية فى الجيش المملوكى ، ويظهر هذا البحث كيف كان التعصب للمماليك المشتروات الذين بدأوا حياتهم بالرق منذ الطفولة • وكان معظم هؤلاء بطبيعة الحال كما أوضحنا فى البحث الأول من الترك القبجاق • أما العناصر الأخرى من الوافدية فبرغم انضمام مجموعات منها الى الجيش المملوكى الا أنها ظلت تعاني من قيود شتى حالت دون وصولها الى قمة السلطة السياسية والعسكرية فى البناء المملوكى •

ويحمل البحث الثالث عنوان الصراع بين الترك والجراكسة ، وهو يظهر تعصب الجراكسة لبنى جنسهم دون بقية العناصر • ذلك أنهم بدأوا كفلاحهم منذ دخول الجيش المملوكى فى عهد الدولة الأولى على يد السلطان قلاوون حتى تم لهم النصر النهائى على يد السلطان الظاهر برقوق سنة ٥٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م الذى يعتبر مؤسس دولة المماليك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة • وقد أوضحت كيف حرص الجراكسة على الاستمرار فى سياستهم العنصرية طوال الدولة المملوكية الثانية حتى سقوطها على يد العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م •

— ٩ —

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في اظهار أثر الناحية العرقية
في تكييف البناء المملوكى بصورة توضح طبيعة هذه المؤسسة العسكرية
التي حكمت مصر نحواً من قرنين ونصف •

والله الموفق ،،

د • احمد عبد الكريم سليمان

البحر للوطن

فرقة البحرية في الجيش المملوكي

فرقة البحرية في الجيش المملوكي

المعروف أن الجيش الأيوبي قد ضم بين أفرادَه منذ عهد صلاح الدين عددا كبيرا من المماليك الترك الى جانب الأكراد والتركمان. ثم ازدادت أهمية طائفة المماليك الترك بعد وفاة صلاح الدين عندما احتدم الصراع بين أبناء البيت الأيوبي حيث لجأ كل فريق الى زيادة عدد مماليكه^(١) ، وبسبب تهديدات الصليبيين وغزوهم مصر، هذا بالاضافة الى تسريح عدد من القادة الأكراد بعد المؤامرة التي دبرها الأمير الكردي ابن المشطوب ضد السلطان الكامل ، ففي عهد ذلك السلطان ٦١٥ — ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ — ١٢٣٨ م هاجم الصليبيون دمياط واستولوا عليها^(٢) . وفي ذروة الهجوم الصليبي وتهديدهم بالاستيلاء

(١) للمزيد من التفاصيل عن عناصر الجيش الأيوبي منذ عهد صلاح الدين انظر : د. الباز العريضي الأيوبيون ، دار النهضة العربية — بيروت ص ١٦٤ — ١٦٨ ، د. العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والثام ص ٩٢ — ٩٣ ، ابن عبد الظاهر : نثر في الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، المقدمة للحكتور مراد كامل ص ٣٥ ،

D. Ayalon, Aspects of the Mamluk phenomenon, Ayyubids, Kurds, and Turks. pp. 1 — 32, No. xb.; in « the 'Mamluk military Society, » Collected studis, London 1979.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ حوادث سنة ٦١٤ هـ ص ٢٧٥ — ٢٧٨ ، ابن نطفة الحموي التاريخ المنصوري تحقيق د. عبد العيسد دودو دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٧٥ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين (بيروت ١٩٤٧ م) ص ١٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦ هـ) ج ١٣ ص ٧٨ — ٨٠ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٣ ، (طبع دار الرائد اللبناني ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٢ ، سعيد عاشور : الحركة

على مصر بأسرها تأمرت مجموعة من القادة الأكراد بقيادة الأمير عماد الدين أحمد بن علي المشهور باسم ابن المشطوب على خلع السلطان الكامل واحلال أخيه الفائز محله اعتقادا منهم أن الفائز سيحقق مصالحهم الخاصة (٣) . وأصبح الأمر حرجا بعد أن اضطر الكامل للفرار من معسكره ، ودبت الفوضى في جيشه ، ولم ينقذ الأمر سوى التدخل السريع من سلطان دمشق المعظم عيسى الأيوبي شقيق السلطان الكامل . فالمساعدة العاجلة التي تلقاها الكامل من الشام والعراق فضلا عن انقسام الصليبيين وأخطائهم مكنته من هزيمة الصليبيين وطردهم من مصر ، كما استطاع الكامل أيضا أن ينفى من مصر الأمراء الأكراد الذين تأمروا ضده ، وأعطى اقطاعاتهم

الصليبية ج٢ ص ٩٦٥ وما بعدها ، د. العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ٨١ وما بعدها ،

Stanley Lane. Poole, History of Egypt in the Middle ages, pp.

219 — 224.

(٣) وقد ذكر ابن الأثير عن ابن المشطوب أنه « أكبر أمير بمصر ، وله لفيف كثير ، وجمع من الأمراء ينقادون اليه ويطيعونه لاسيما الأكراد » . الكامل ج١ ص ٣٧٦—٣٧٧ ، وانظر أيضا المصادر والمراجع الآتية : ابن خلكان ، وفیات الاعيان تحقيق احسان عباس ج١ ص ١٨٠ — ١٨٤ ، ده ص ٧٩ — ٨٠ ، أبو شامة : مصدر سابق ص ١١٦ ، ١٢٢ ، أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٢ ص ٤٢٠ ، (طبع دار المعرفة بيروت) ، ابن خلدون : كتاب العبر .. مجلد ٥ ج١ ص ٧٥٠ — ٧٥٢ (طبع دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣ م) ، ابن تغري بردي : النجوم ج ٦ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ابن كثير : مصدر سابق ج٣ سنة ٦١٥ هـ ص ٨٠ ، د. سعيد عاشور : الحركة ج٢ ص ٩٧٢ — ٩٧٣ ، ٩٧٩ ، ٩٨١ — ٩٨٤ ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ١٠٠ .

لماليكه (٤) •

وازدادت طائفة المماليك عددا فى مصر بعد أن قدم عدد كبير من ممالك المعظم عيسى — بعد وفاته — الى مصر حيث استقبلهم الملك الكامل استقبالا طيبا • وعندما مات الملك المسعود حاكم اليمن وهو ابن السلطان الكامل جاء ممالكه الى مصر ودخلوا ضمن وحدات جيش الكامل (٥) • وهكذا أصبح الأكراد يحتلون المرتبة الثانية فى جيش الكامل نتيجة لعدم اخلاصهم له وتأمرهم عليه ، حين كانت البلاد مهددة بالسقوط فى يد الصليبيين ، فى حين أصبح العنصر المملوكى من الترك هو الأكثر ظهورا على المسرح العسكرى ، وان كان دورهم السياسى لم يكن قد برز حتى ذلك الوقت (٦) •

وكان الصالح نجم الدين أيوب حريصا على زيادة ممالكه الترك، فخلال غياب والده السلطان الكامل فى الشام والعراق فى الفترة من سنة ٦٢٥ — ٦٢٧ هـ / ١٢٢٨ — ١٢٣٠ م كان الصالح نائبا لأبيه الكامل فى مصر ، وقد اشترى الصالح نجم الدين عددا من الممالك الترك كى يقوم بانقلاب ضد والده ويستولى على العرش ، وعندئذ أسرعت زوجة الكامل (أم العادل) باخطار زوجها بالأمر وبخطة الصالح

(٤) ابن الأثير : مصدر سابق د. ١٠ ص ٣٧٧ — ٣٨٠ ، ٤٢٨ ، ابن نضيف الحموى : مصدر سابق ص ٩٢ ، ابن كثير : مصدر سابق د ١٢ ص ٩٥ ، أبو الفداء : مصدر سابق ج ٣ ص ١٣٠ ، ابن خلكان : مصدر سابق د ٥ ص ٧٩ — ٨٠ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٣٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور د ١ ق ١ ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، د. سعيد عاشور : الحركة د ٢ ص ٩٧٣ ، الأيوبيون والمماليك ص ١٠٠ ،

D. Ayalon, Aspects ..., pp. 21 — 22 .

(٥) المقرئى : السلوك د ١ ق ١ ص ٢٣٧ ،

D. Ayalon, Aspects..., p. 22 — 23.

(٦) D. Ayalon, Aspects..., p. 22 — 23.

نجم الدين أيوب ، فأُسرع الكامل بالعودة الى مصر حيث عين ابنه العادل وريثاً له ونائباً في مصر ، وخلع الصالح من ولاية العهد (٧) ثم رسخت فكرة اعتماد الصالح نجم الدين أيوب على مماليكه الترك وحدهم عندما واجه الهزيمة في المعركة بينه وبين أخيه العادل بسبب تخلى الأكراد عنه ، ولم يصمد معه سوى ثمانين من مماليكه (٨) . وعندما أصبح الصالح نجم الدين أيوب سلطاناً على مصر منذ سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م أقبل على شراء المزيد من المماليك الترك والخطائية (٩) .

وليس لدينا احصائيات دقيقة عن أعداد المماليك الذين خدموا في جيش الصالح نجم الدين أيوب ، غير أن حركة عزل العادل الثاني واحلال الصالح أيوب محله تدل على مدى تفوق العنصر التركي على العنصر الكردي في تلك الفترة . ويقال بأن المماليك الجدد الذين اشتراهم الصالح نجم الدين أيوب قد تراوح عددهم في بداية

(٧) المقرئى : مصدر سابق دا ق ١ ص ٢٢٨ — ٢٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب د ١ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ ، د. العبادى : مرجع سابق ص ٩٢ — ٩٣ ،

D. Ayalon, Aspects..., p. 24 ; Le Regiment Bahriya dans L'Armée Mamelouke, p. 133, in, « Studies on the Mamluks of Egypt, N. III '.

(٨) المقرئى : الخطط د ٢ (طبع بولاق) ص ٢٣٦ ، كتاب السلوك دا ق ٢ ص ٢٨٨ ،

D. Ayalon, Aspects.. p. 25 ; Le Regiment., p. 133.

(٩) المقرئى : السلوك دا ق ٢ ص ٣٠٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ح ٦ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

الأمر ما بين الثمانمائة وبين الألف مهلوك (١٠) . وقد اختار هذه النخبة من الترك والخطا من بين القبائل التي استولى عليها المغول في أثناء غزوه لبلاد الشرق والشمال والقبجاق حيث نتج عن ذلك توفر أعداد كبيرة في أسواق الرقيق من هذه العناصر لاسيما القبجاق . وقد كون الصالح من هؤلاء حرسه الخاص ، وعاشوا في كتفه ورافقه في حملاته العسكرية وفي استراحاته ، وكانوا دائما حول خيمته ، وكان هؤلاء الترك يعظمون الصالح نجم الدين أيوب ويهابونه ، وكانت ثقتهم العسكرية في قلعة جزيرة الروضة على النيل ، وقد أطلق الصالح عليهم اسم البحرية (١١) . ولم يكن إطلاق الصالح اسم «البحرية» على فرقته الجديدة من الممالك أمر جديدا في مصر فقد سبق أن عرف هذا الاسم في عهد العادل الأول جد الصالح أيوب ، كما

(١٠) ابن أيك الدواداري : كنز الدر — وجامع الغرر حـ المعروف باسم : البزة الزكية في أخبار الدولة التركية تحقيق أولرخ هارمان — القاهرة ١٩٧١ م — ص ١٤ ، ابن اثبات : الانتصار لإيالة عقد البحار (دار الأناق الجديدة بيروت) القسم الأول ص ١١٠ ، المقرزي : الخطط ٢ ص ٢٣٦ ،

D. Ayalon, Aspects... p. 25, Le Regement, p. 139.

(١١) المقرزي : الخطط ٢ ص ٢٢١ ، ٢٣٦ ، السلوك ١ ص ٤ ص ٣٣٩ — ٢٤٠ ، ابن دقماق : الانتصار . . القسم الأول ص ١١٠ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٦ (طبع بيروت) ، ابن تغرى بردي : النجوم ١ ص ٣٢١ ، أبو الفداء : مصدر سابق ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، ابن أبياس : مصدر سابق ١ ص ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، د. سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٥٥ ، د. البار العريني : المالكي ص ٥٥ ، د. العبادي : مرجع سابق ص ٩٤ ،

D. Ayalon, Le Regement.. p. 134 ; Aspects... pp. 25 — 26 ;

G. Wiet, L'Egypt Arabe, p. 388 ; S. Lane poole, History of Egypt in the Middle ages, p. 243 ; Glubb, Soldiers of Fortune, pp. 37 — 39.

عرف قبل ذلك فى العهد الفاطمى ، بل عرف أيضا فى اليمن فى عهد
السلطان نور الدين عمر بن رسول ت ٥٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م (١٢) .

ويبدو أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد اشترى خلال حكمه
٦٣٧-٥٦٤٧ هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩م عددا كبيرا من الممالك الترك البحرية،
وأن هذه الفرقة قد تزايد عددها بدرجة ملحوظة حتى أنها حجبت
بقية عناصر الجيش عن الظهور ، والدليل على ذلك أن مصادر ذلك
العصر لم تذكر فى حياة الصالح أو بعد مماته سوى هؤلاء الممالك
الذين عرفوا بالصالحية وأهملت تماما العناصر الأخرى من الأكراد
والتركمان مما يدل على ثلاثى نفوذ هذه العناصر فى جيش الصالح
نجم الدين أيوب وزوال نفوذها ، فى حين أصبحت فرقة الممالك
البحرية هى العمود الفقري للجيش ، وبالإضافة الى مهمتها فى حراسة
قلعة الروضة فقد اشتركت فى المعارك الرئيسية التى خاضها الجيش
الملوكى . وفى معركة المنصورة ٥٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م أصرت مجموعة من
الممالك البحرية على مهاجمة الصليبيين حتى تم النصر للمسلمين ،
وتظل البحرية يتفخرون بهذا العمل ويقولون : « نحن خلصنا مصر

(١٢) الخزرجى : العتود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية طبع
صنعاء ، بيروت ١٩٨٣ م ج ١ ص ٨١ ، د. العبادى : مرعع سابق
ص ٩٧ - ٩٩ .

وينكر د. العبادى نقلا عن جوائفل الذى رافق حملة لويس التاسع
على مصر أن تسمية الممالك بالبحرية يرجع الى أنهم جاءوا الى مصر من
وراء البحر ونص عبارة جوائفل وهى :

They were Called Bahariz «Folk From the Sea».

انظر :

Villehardouin and D. Joinville, *Memoirs of the Crusades*, Joinville's chronicle of the Crusade of St. Lewis, p. 205. London 1965.

والشام بسيوفنا من الفرنج » (١٣) .

وتوفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وخلفه ابنه المعظم تورانشاه الذى كان مقيماً فى حصن كيفا . وقد قلب تورانشاه سياسة أبيه رأساً على عقب ، فأطلق كل السجناء الذين سجنهم أبوه الصالح فى دمشق ، وهدد باستئصال شأفة مماليك أبيه البحرية وكسر شوكتهم . وقد أدت رعونة وخشونة تورانشاه الى الدخول فى صدام محتم مع المماليك البحرية انتهى بقتله ، وتولية شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب ، وهذا دليل بآخر على مدى ماوصلت اليه فرقة البحرية من نفوذ ، فقد اغتالت تورانشاه دون أن تحرك عناصر الجيش الأخرى سلكتنا لانقاذه (١٤) .

(١٣) المقرئى : السلوك دا ق ٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥٥ — ٣٥٦ ، الخطط دا ص ٢٣٧ ، ابن أيك الدوادار: كنز الدرر دا « الدرة الزكية » ص ٢٢ ، D. Ayalon, Le Regiment.. p. 135 ; Aspects.. pp. 25 — 26.

(١٤) أبو الفداء : مصدر سابق ٣ ص ١٨١ — ١٨٢ ، أبو شامة: مصدر سابق ص ١٨٥ — ١٨٦ ، المقرئى : السلوك دا ق ٢ ص ٣٥٢ ، الخطط دا ص ٣٦١ ، ابن تغرى بردى : النجوم دا ص ٣٧٠ — ٣٧١ ، ابن خلدون : المجلد الخامس دا ص ٧٨٢ — ٧٨٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤ — ١١ ، د. الباز : المماليك ص ٤٦ ، الأيوبيون ص ١٥٢ ،

D. Ayalon, Aspects., p. 26 — 27 ; Le Regiment, p. 135 ;

وقد ذكر ابن العبرى سبباً آخر لقتل نورانشاه وهو عدم موافقة كبار الأمراء على إطلاق سراح ملك فرنسا الأسير فى معركة المنصورة .
انتظر : ابن العبرى : تاريخ الزمان ترجمة الأب اسحاق أرمله ص ٢٩٤ — ٢٩٥ (دار المشرق بيروت) تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ، (دار الرائد اللبناني بيروت ١٩٨٣ م) .

وبلاحظ أن المؤرخ ابن دقماق لم يأخذ بالرأى الغالب عند المؤرخين باعتبار شجر الدر هى أولى بسلاطين المماليك ، واعتبر أن عز الدين أيك هو أول السلاطين . انتظر : الجوهر الثمين ص ٢٥٦ .

وتطورت الأمور السياسية في مصر ، فاعتلى عز الدين أيبيك
التركماني ^(١٥) العرش وشرع في وضع حد لتسلط البحرية . وتمكن
سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م من قتل زعيمهم الأمير أقطاي ، كما أمر عز الدين
أيبيك بالقبض على باقى زعماء البحرية فهرب أكثرهم من مصر ،
فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار الى الملك الناصر
بدمشق ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك
والقدس ، يعملون قطاعا للطرق ويأكلون بسيوفهم ، كما سار منهم
مائة وثلاثون الى السلطان علاء الدين سلطان سلاجقة الروم في آسيا
الصغرى . ولكي يضمن عز الدين أيبيك عدم عودة البحرية الى مصر
مرة أخرى طلب من الناصر الأيوبي سلطان دمشق إعادة بلاد ساحل
الشام الى حوزة مصر ، فوافق الناصر على ذلك ، فأقطعها عز الدين
أيبيك للبحرية الماريين كي يستقروا نهائيا في تلك المناطق ^(١٦) . كما
كتب عز الدين أيبيك الى سلطان سلاجقة الروم يخوفه من البحرية
ويحذرهم من شرورهم ويحثه على طردهم وعدم الاطمئنان اليهم
لأن « البصرية قوم مناحيس أطراف ، لا يقفون عند الإيمان ،
ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وان استأمنتهم خائوا ، وان
استحلفهم كذبوا ، وان وثقت بهم غدروا . فتحرز منهم على نفسك ،

(١٥) لم يكن عز الدين أيبيك تركمانيا كما يدل على ذلك لقبه ، بل هو
تركي من التفجاق ، أما بسبب تلقيسه بالتركماني فهو انتسابه الى عائلة
تحمل ذلك الاسم قبل اعتلائه السلطنة آنظر :

D. Ayalon, Names, titles, Nisbas. of the Mamluks, p. 220,
in « The Mamluk Military Society » ;

السلوك : د ١ ق ٢ ص ٣٦٨ ، الخطط د ٢ ص ٢٣٧ .

(١٦) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٣٩٠ — ٣٩٣ ، ابن
عبد الظاهر : الروض الزاهر « تحقيق د. الخويطر » ص ٥٤ — ٦٣ ،

D. Ayalon, Le Régement.. p. 136 ; Muir, The Mameluke or
Slave Dynasty of Egypt.. p. 7 — 8 .

فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك * ولما استفسر سلطان الروم من البحرية عن موقف عز الدين أييك منهم أقنعه للبحرية بأن عز الدين ليس أستاذهم ، « إنما هو خوشدأشنا (١٧) ونحن وليناه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرنا وأفرس وأحق بالملكة ، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وفرق بعضنا فهربنا منه وتشتتنا في البلاد ، ونحن التجأنا إليك » وقد اعجب سلطان الروم بهم واستخدمهم عنده (١٨) *

وإذا كان السلطان عز الدين أييك قد نجح في التخلص من البحرية وطردهم من مصر فإنهم حافظوا على قيمتهم العسكرية وشكلوا عنصرا عسكريا من الطراز الأول في جيوش السلاطين الأيوبيين في الكرك ودمشق * ولعب البحرية دورا نشطا وعمليا سواء بالتحريض أو الاشتراك المباشر في الحرب من أجل استعادة الأسرة الأيوبية حكم مصر *

وهكذا اشترك البحرية مع المغيث عمر حاكم الكرك في محاولاته غزو مصر سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وسنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، غير أن المحاولتين باءتا بالفشل ، ولحقت بالأيوبيين والبحرية الهزيمة على يد قطز نائب السلطنة في مصر (١٩) *

(١٧) الخشداش هو الزميل في الخدمة ، والخشداشية هي رابطة الزمالة بين المالك الذين نشأوا عند أستاذ أو سيد واحد - انظر : ابن دقماق الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٥٠ *

(١٨) المقریزی : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٣ *

(١٩) من الأحداث السياسية في مصر بعد موت الصالح نجم الدين أيوب واشتراك المالك البحرية فيها وطردهم من مصر وتحريضهم الأيوبيين على غزو مصر انظر المصادر الآتية : ابن عبد الظاهر : مصدر سابق

وعاد نفوذ البحرية في مصر الى الظهور مرة أخرى بعد قتل كل من المعز أييك وشجر الدر . وفي الوقت الذي ترايد الخطر المغولي الزاحف من المشرق أصبح الأمير قطز هو الحاكم الفعلي للبلاد في ظل سلطان صغير قاصر هو المنصور على بن عز الدين أييك . ولما كانت العقبة الرئيسية أمام عودة المماليك البحرية المطرودين من مصر قد زالت ب وفاة عز الدين أييك ، فقد عاد على الفور الفريق الذي كان قد لجأ الى السلطان السلجوقي في آسيا الصغرى (٢٠) أما أولئك الذين كانوا عند الناصر يوسف فانهم أخذوا ينتقلون مابين دمشق والكرك يؤيدون المغيث تارة والناصر تارة أخرى ، ولم يعودا الى مصر الا سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م بزعامه بيبرس البندقداري حيث استقبلهم قطز الذي كان قد استولى على العرش لنفسه بحجة حاجة البلاد الى سلطان كبير يقاوم التتار ، استقبلهم بترحاب كبير ودعاية ضخمة . ونظرا لأنه كان يدرك قدراتهم العسكرية ، فقد احقهم فورا بالجيش

ص ٤٦ — ٦١ ، أبو الفداء : مصدر سابق ح ٣ ص ١٧٩ — ١٨٣ ، ١٩٢ — ١٩٥ ، المقرئى : السلوك ح ١ ق ٢ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ح ٧ ص ٤٤ — ٤٧ ، ٥٣ ، ابن خلدون : مصدر سابق مجلد ٥ ح ١ ص ٧٨٧ — ٧٨٩ ، ابن أييك الداودارى : مصدر سابق ح ٨ « الدرر الزكية » ص ٣٠ — ٣٢ ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ٢٣ — ٢٥ ، وانظر أيضا :

D. Ayalon, Le Regiment., p. 136 ; S. Lane poole, op. cit, p.

259 — 261 .

(٢٠) ابن كثير : مصدر سابق ح ١٣ ص ٢١٦ ، المقرئى : السلوك ح ١ ق ٢ ص ٤٠٦ ،

D. Ayalon, Le Regiment., p. 136.

استعدادا لمواجهة المغول الزاحفين من جهة الشرق (٢١) .

ونجح المماليك البحرية بزعامه قطز وببيرس البندقدار في صد جحافل المغول عن بلاد الشام ومصر ، وانتصروا انتصارا رائعا في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م وهو النصر الذي كان بمثابة الواجهة الشرعية لحكم المماليك بعد أن أصبحوا هم القوة الوحيدة القادرة على حماية البلاد . وإذا كان المظفر قطز قد قتل غيلة وهو في طريق عودته من ميدان المعركة الى القاهرة ، فان قاتله الذي كان شريكه في صنع النصر وهو بيبرس البندقدار قد اعتلى عرش السلطنة ، ووضع الأسس الثابتة لدولة المماليك الأولى ، وكان عنصر القبحاق الترك هو الدعامة الرئيسية لتلك الدولة (٢٢) .

(٢١) أبو شامة : مصدر سابق ص ٢٠٣ ، أبو الفداء : مصدر سابق ص ٣١٩ — ٢٠٠ ، ابن أبيك الدواداري : مصدر سابق ص ٨ (الدرر الزكية) ص ٤٩ ، المقرئ : السلوك ص ٢١ ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ابن تغري بردي : النجوم ص ٧٤ — ٥٥ ،

D. Ayalon, Le Regement., pp. 136 — 137.

(٢٢) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ٦٣ — ٧٠ ، ابن أبيك : مصدر سابق ص ٨٩ — ٥٧ ، ٦١ — ٦٣ ، أبو الفداء : مصدر سابق ص ٢٠٥ — ٢٠٨ ، ابن كثير ، مصدر سابق ص ١٣٠ — ٢٢٠ — ٢٢٢ ، رشيد الدين : جامع التواريخ مجلد ٢ ص ٣١٣ — ٣١٧ : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٩ — ٤٩٢ ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ص ٢٩٥ ، أبو شامة : مصدر سابق ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، اليونيتي : نيل مرآة الزمان ص ٣٦١ — ٣٦٦ ، المقرئ : السلوك ص ٢١ ص ٤٢٩ — ٤٣٢ ، ابن تغري بردي : النجوم ص ٧٩ — ٨٠ ، د. سعيد عاشور : العصر المملوكي ص ٣٢ — ٣٥ ، الحركة ص ١١٣٣ — ١١٣٧ ،

Grousset, L'Empire des Steppes, p. 439 ; Howorth. History of the Mongols, p. III, p. 168 — 169.

واستقر الأمر لببيرس البندقدارى فى حكم مصر ، وشرع فى انشاء جيش قوى لحماية البلاد وصد الخطر المغولى الذى لايزال قائما ، والخطر الصليبي فى المناطق الساحلية فى بلاد الشام . وفى هذا المجال فان ببيرس نظر الى فرقة البحرية الصالحية على أنها الأساس فى تكوين ذلك الجيش ، فرفع من شأن أفرادها الذين كانوا خُشداشيته ، كما أمر باحضار البحرية البطالين من البلاد ، يقول ابن عبد الظاهر : « ولما أعطاه الله الملك لم يسئله شئ عن الأحسان إلى كبيرهم وصغيرهم ، وقدمهم بعد أن اعتقد كل منهم أنهم لا تقوم لهم قائمة أبدا ، وجمع شملهم بعد أن كانوا تهججوا فى البلاد ، واستخفوا حتى أن أحدا منهم ماكان يجسر يذكر لفظ التركية ولا الجندية ، فلما من الله باقبال دولة السلطان جمع منهم الشريد ، وقرب البعيد ، وقدم المتأخر ، وولى المعزول ، ورد عليهم ماكان نغصب من أملاكهم وأموالهم ونعمهم ، وأمر من يستحق الامرة ، وقدم عليهم من يصلح للتقدمة ، وجعل لهم ديوانا مفردا ، وصاروا من المختصين به ، والحافظين لقلعته فى غيبته وحضوره ، وما اقتنع بذلك ، حتى تنقذ أولاد من مات فى هذه السدة من خُشداشيته ومماليكهم وغلمانهم ، وقرر لهم المقررات » (٢٣) . وهكذا أصبحت فرقة البحرية هى الأكثر شرفا فى الجيش الذى أنشأه الظاهر ببيرس ، والأهم من ذلك أن هذه الفرقة ظلت تحتفظ باسم مؤسسها الأول الصالح نجم الدين أيوب ، فصارت تعرف بالبحرية الصالحية (٢٤) . وقد أنشأ الظاهر ببيرس فرقة أخرى من البحرية صارت تسمى البحرية الظاهرية ، ولم تتدمج هذه الفرقة الأخيرة مع الفرقة البحرية الصالحية ، وإنما

(٢٣) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ٧٤ ، وانظر أيضا : ابن دهمالي : الجوهر الثمين ص ٢٧٤ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم ص ٧٠ ص ١٠٣ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٨ ،

احتفظت هي الأخرى باسمها الخاص بها ، وضار لكل منهما متقدم خاص بها (٢٥) ، ينبغي أن يبيت أمام القلعة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢٦) .

وقد ظلت فرقة البحرية الصالحية قائمة حتى عصر السلطان قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م ، واستند عليها فى بداية حكمه ورفع من شأنها ، وأعطى أفرادها الأقطاعات وكبر منهم جماعة من خشداشيته كانوا قد نسوا وأهملوا ، وعين بعضهم حكاما فى القلاع فى البلاد الشامية ، كما شكل قلاوون فرقة جديدة من أبناء البحرية الصالحية الذين كانوا قد تعلقوا بالصنائع والحرف وساعت أحوالهم المالية ، وعهد اليهم بحراسة القلعة والجلوس على أبوابها ، هذا فى حين يقل قلاوون من شأن البحرية الظاهرية ، فطرد وعزل عددا كبيرا من أمرائهم (٢٧) . ويبدو أن السبب فى ذلك هو تأمر الظاهرية على قلاوون واتصلهم بالأمير سنقر الأشقر الثائر على السلطان . وكان سنقر الأشقر نائب الشام قد رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك الكامل ، وانضم اليه فى الفتنة رؤساء قبائل العربان فى الشام ، واضطر السلطان قلاوون

(٢٥) المقرئى : الخطط ٢ ص ١١١ ، ١١٢ ، السلوك ١ ق ٢ ص ٦٥٨ ، ١ ق ٢ ص ٦٨٦ ،

D. Ayalon ; Le Regement., p. 137 — 139 ,

وانظر أيضا : ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ٧ ص ٢٠٧ .

(26) D Ayalon, Le Regement., p: 139.

(٢٧) المقرئى الخطط ٢ ص ٢١٧ ، السلوك ١ ق ٣ ص ٦٥٨ ،

٦٧٢ ، ٦٨٦ ، ابن اياس : مصدر سابق ١ ق ١ ص ٣٨٤ ،

D. Ayalon. Le Regement.. pp. 137 — 139 ;

وانظر أيضا : ابن الفرات ، مصدر سابق مجلد ٧ سنة ٦٧٨ هـ

ص ١٥٠ ،

الى تجريد الجيوش وارسالها لقتال سنقر الأمشقر الذى كاتب ايلخان المغول أبغيا يحرضه على غزو الشام ، ثم تحصن سنقر فى حصن صهيون مع قواته (٢٨) .

وظلت بقايا الصالحية الى نهاية القرن السابع الهجرى عندما توفى الأمير الكبير بيسرى سنة ١٢٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، وهو من الأمراء المشهورين من مماليك الصالح نجم الدين أيوب (٢٩) . وفى سنة ١٣٠٧ هـ / ١٣٠٧ م توفى الأمير بيبرس الجالقي فى عمر الثمانين ، وهو آخر أمراء البحرية الصالحية (٣٠) .

ويبدو أن وظيفة عناصر البحرية قد أصبحت فيما بعد قاصرة على خدمة الحراسة فقط ، وإن كانت هناك استثناءات قليلة من هذه القاعدة . من ذلك أن الظاهر بيبرس قد أرسل سنة ١٢٦١ هـ / ١٢٦٢ م قوة من البحرية الصالحية للعمل فى حراسة حصن الكرك . وفى العام

(٢٨) المقرئى : السلوك ١ ق ٣ ص ٦٧٤ — ٦٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ٧ ص ٢٩٤ — ٢٩٩ ، أبو الفداء : مصدر سابق ٤ ص ١٣ ، ابن حبيب : فنكره النبىه فى أيام المنصور وبنيه تحقيق د. محمد أحمد أمين ص ٥٢ .

(٢٩) هو الأمير بدر الدين بيسرى بن عبد الله الشمسى الصالحى النجمى . انظر : المقرئى : السلوك ١ ق ٣ ص ٨٨٠ — ٨٨١ ، وقد فكر ابن تغرى بردى أن السلطنة عرضت على الأمير بيسرى مرات عديدة ، بعد الملك السعيد بن الظاهر ، وبعد قتل الأشرف خليل ، لكنه لم يقبل ، وترقى حتى صار أميراً مائة مقدم ألف ، وقد قبض عليه المنصور قلاوون وحبسه ، وأخرج عنه الأشرف ، ثم قبض عليه مرة أخرى فى عهد لاجين ، وظل فى الحبس حتى مات فى الحب : انظر النجوم ٨ ص ١٨٥ .

D. Ayalon, Le Regement..., p. 138 ;

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم ٨ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ،

D. Ayalon, Le Regement..., p. 138.

التالى اشتركت هذه القوة فى حملة عسكرية ضد خير^(٣١) . وفى عام ١٢٩٨م / ١٢٩٨م قام الأمير قبجق نائب الشام بالهاتق البحرية الموجودين فى قلعة دمشق بجيش الاقليم فى احدى الهجمات ضد المغول^(٣٢) . وفيما عدا هذين الحادثين لا يبدو أن البحرية اشتركت فى الحروب بل اقتصرت مهمتها على الحراسة فقط^(٣٣) . والمعروف أن السلطان قلاوون عندما زار الكرك سنة ١٢٨٥هـ / ١٢٨٩م وضع فى ذلك الحصن جماعة من البحرية لحراسته والدفاع عنه^(٣٤) . وقد استمر هذا الوضع فى عهد السلطان الأشرف خليل^(٣٥) .

وقد ظلت عناصر من أجناد الجيش المملوكى يطلق عليها اسم البحرية فترة طويلة تمتد حتى عصر المقرئزى فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . / الخامس عشر الميلادى . والمقرئزى يذكر صراحة « والى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية »^(٣٦) كما أن القلقشندى لفت النظر الى ذلك أيضا بقوله « ومن الأجناد طائفة ثلاثة يقال لها البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان

(٣١) ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ٢٢٠ ،
D. Ayalon, Le Regiment.. p. 138 — 139.

(٣٢) المقرئزى : السلوك دا ق ٣ ص ٨٥٢ ،
D. Ayalon, Le Regiment.. p. 139.

(٣٣) D. Ayalon, Le Regiment.. p. 139.

(٣٤) المقرئزى : السلوك دا ق ٣ ص ٧٣٢ ،
D. Ayalon, Le Regiment.. p. 140.

(٣٥) ومن أمراء البحرية المشهورين الذين استقروا فى الكرك فى عهد الأشرف خليل الأمير علم الدين سنجر الجاوى .
انظر المقرئزى : الخطط دا ص ٣٩٨ .

(٣٦) المقرئزى : الخطط دا ص ٢١٧ ،
D. Ayalon, Le Regiment.. p. 138.

فى السفر كالحرس • وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب « (٣٧) • وفى منتصف القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وجدت عناصر من البحرية فى خمسة حصون فى بلاد الشام • ومن البلاد التى وجدت البحرية فى قلاعها دمشق وحلب والكرك وطرابلس والرحبة (٣٨) ، وذكر القلقشندى عن قلعة حلب أن فيها « من الأجناد البحرية المعدين لحراستها نحو أربعين نفسا ، مقيمون بها لا يظعنون عنها بسفر ولا غيره ، ويجلس منهم فى كل نوبة عدة فى الباب الثانى منها من حين فتح الباب فى أول النهار والى حين قفله فى آخر النهار » (٣٩) • وتطبق هذه القاعدة على باقى قلاع المدن الأخرى ، فلم تتحدث المصادر عن اشتراك بحرية هذه القلاع فى العمليات العسكرية (٤٠) •

وفى القاهرة كانت البحرية مكلفة بحراسة القلعة والسلطان فكانت قاعدتها ألا تخرج من القلعة فى الظروف العادية ، وربما فرض عليها فى وقت الاضطرابات تقديم بعض الخيول مساعدة عسكرية للسلطان مثلما حدث سنة ٧٩١ هـ (٤١) ، إلا أنه فى ساعة

(٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى د٤ ص ١٦ ، أما الطائفة الأولى فالمقصود بها الممالك السلطانية ، والطائفة الثانية هى أجناد الحلقة .
انظر صبح د٤ ص ١٥ — ١٦ •

(٣٨) القلقشندى : صبح الأعشى د٤ ص ١١٩ ، ١٨٩ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ ، المقرئى : السلوك د١ ق ٣ ص ٩٢٨ ،
D. Ayalon. Le Regiment., p. 140.

(٣٩) القلقشندى : مصدر سابق د٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ •

(40) D. Ayalon, Le Regiment.. p. 140:

(٤١) المقرئى : السلوك د٣ ق ٢ ص ٦٧٩ سنة ٧٩١ هـ ، ويذكر المقرئى فى هذا المجال « وفيه تقرر على سائر الممالك البحرية والمفردة وأولاد الأمراء المقيمين بالقاهرة ممن تعين لحفظها وحفظ القلعة ومصر ، فى مدة غيبة السلطان خيولا يحملونها الى الريدانية » •

الخطر الشديد كانت البحرية تخرج لحراسة السلطان في أثناء قيامه بحملات عسكرية • ولينا مثال على ذلك ماحدث سنة ٥٧٩٦ هـ / ١٣٩٤م عندما جاءت تهديدات تيمورلنك الى السلطان الظاهر برقوق ، فقد جهز الظاهر على الفور حملة عسكرية ضمت بالاضافة الى المماليك السلطانية ، أربعمئة من أجناد الحلقة ، ومائتين من البحرية لمرافقة السلطان (٤٢) • ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى أهملت المصادر ذكر الأحداث المتعلقة بالبحرية سواء في مصر أو الشام •

(٤٢) المقریزی : السلوك ٣ ق ٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٧ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ح ٢ ص ٣٧٤ ،

D. Ayalon, Le Regemen., p. 141.

ويبدو ان البحرية في تلك الفترة كان يطلق عليها « المركين » انظر : القلقشندي : صبح الأمشى ح ٤ ص ٦٤ — ٦٥ ، ح ٨ ص ٦٠ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ح ١ ص ١٦٧ ، المقریزی : السلوك ح ١ ق ٣ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ ، ٧٤٩ ،

D. Ayalon, Le Regemen., p. 141.

البحر الثاني

الوافدية في الجيش المملوكي

الوافدية في الجيش المملوكي

امتد نفوذ المماليك البحرية الى بلاد الشام بعد معركة عين جالوت سنة ١٢٥٨ هـ / ١٢٦٠ م • ودافع المماليك عن مصر والشام دفاعا بطوليا ضد المغول من ناحية ، وضد الصليبيين من ناحية أخرى • وقد استلزم الكفاح ضد هذين الخطرين اعداد جيش قوى • وكان طبيعيا أن يعتمد المماليك في اعداد ذلك الجيش على عناصر من نفس جنس المماليك البحرية أى القفجاق (١) • وقد أدت العلاقات الطيبة بين الظاهر بيبرس وبين بركة خان مغول القفجاق من ناحية ، وبين بيبرس والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوج من ناحية أخرى الى تسهيل مهمة شراء المماليك القفجاق ، كما نجح بيبرس بفضل سفاراته وهداياه فى أن يحصل من الامبراطور البيزنطي على اذن مرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البسفور الى البحر الأسود ذهابا وايابا مرة كل سنة (٢) • غير أن ذلك لايعنى عدم وجود عناصر

(1) D. Ayalon, The European, Asiatic Steppe, A Major reservoir of Power For the Islamic world, p. 50, in «The Mamluk Military Society » N. VIII.

وانظر أيضا : د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٦ ،

(٢) د. العبادى : مرجع سابق ص ٢١٧ ،

W. Heyd, Histoire du Commerce Du Levant Au Moyen - Age. Tome 11. p. 556, « 1923 ».

ومن العلاقات بين الظاهر بيبرس والدولة البيزنطية أنظر :

ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر « تحقيق د. الخويطر » . ص ١٢٩ ، القرىزى : كتاب السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧١ ، د. حسين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٩٣ ، د. سعيد عاشور : العصر المملوكى ص ٢٦١ — ٢٦٢ ،

S. Lane Poole, History of Egypt in the Middle Ages. p. 266.

مختلفة عن التفجاق فى الجيش الملوكى ، فالهجرة الغربية لشعوب المغول من استتبس أوراسيا تركت أثرا قويا على دولة المماليك • وقد سبب المغول فى تقدمهم غربا اضطرابا وهياجا شديدين بين الشعوب التتر غزيت أراضيها ، واعداد كبيرة من السكان التى تشتت وطردت تحت الضغط المغولى دخلت دولة المماليك (٣) •

وتكون الجيش الملوكى من عناصر جاءت الى مصر باحدى وسيلتين : اما ممالك رقيق بطريق الشراء ، وقد دخل هؤلاء البلاد المصرية منذ العصر الايوبى ، ومنهم كون الصالح نجم الدين أيوب فرقة البحرية التى انبثقت منها دولة المماليك البحرية أو الأولى ذاتها ، ثم سار سلاطين المماليك على نفس النهج فى شراء المماليك الجدد وتربيتهم وفق نظام عسكرى معين ، واما لاجئون ومنفيون هاجروا الى دولة المماليك مع قبائلهم للبحث عن حماية من المغول • ولم تقتصر هجرة اللاجئين على أى حال على الأجناس التى هددها الضغط المغولى ، بل شملت نسبة من المغول أنفسهم الذين جاءوا يبحثون عن مأوى فى دولة المماليك نتيجة للنزاع الذى نشب بين دول المغول المختلفة ، وبين القبائل المغولية بعضها وبعض أو بين خان المغول وبعض أتباعه • كما أن البعض جاء فى أعقاب مجاعات حدثت فى أقاليمهم ، أو لأنهم سمعوا عن غنى مصر وما يتمتع به المماليك من ثروة ونفوذ • وعلى العموم فإن هجرة المغول الى مصر حدثت فى معظمها فى أثناء حكم اثنين من السلاطين هما : بيبرس البندقدارى الذى وضع الأسس الثابتة لدولة المماليك الأولى ، والثانى هو كتبغا وهو أويراتى مغولى من الناحية العرقية ، وكان

(3) D. Ayalon, The wafidiya in the Mamluk Kingdom, p.

89, in « Studies on the Mamluks of Egypt » N. II.

طبيعياً أن يرحب بأبناء جنسه في مصر ^(٤) . وقد أطلق المؤرخون على العناصر التي جاءت الى مصر لاجئة أو منفية اسم الوافدية أو الوافدين أو المستأنه أو المستأمنين ^(٥) .

ومن العناصر التي وفدت الى بلاد الشام الخوارزميون الترك، ففي سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م استدعاهم الصالح نجم الدين أيوب لمساعدته ضد أيوبى سوريا وفلسطين ، وضد الصليبيين . وفي سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م عبر عشرة آلاف مقاتل من الخوارزميين الفرات يقودهم أربعة من كبار قادتهم هم : الأمير حسام الدين بركة خان ، وخان بردى ، وصاروخان ، وكثلوخان . وقد عاث الخوارزميون فسادا في بلاد الشام حتى اضطر السلطان الى انزالهم في غزة ووعدهم ببلاد الشام وأرسل الخلع والهدايا الى قادتهم لاسترضائهم . وقد تمكن الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة الخوارزميين من احراز النصر على أيوبى بلاد الشام والصليبيين في ذات العام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٤ م . وقد طمع الخوارزميون عندئذ في دخول دمشق واقتسام بلاد الشام مع الصالح نجم الدين حسب وعده معهم ،

(4) D. Ayalon., The Wafidiya., p. 89.

وعن اثر المغول على النظام العسكرى الذى انشأه بيبرس انظر :

ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ، ومن الوظائف الجديدة التى انشأها بيبرس : أمير سلاح ، أمير مجلس ، رأس نوبة النوب ، أمير أخور ، أمير جندار ، أمير علم ، وانظر أيضا : ابن تغرى بردى : النجوم ج ٧ ص ١٨٣ — ١٨٦ .

(٥) ابن عبيد الظاهر : مصدر سابق ص ١٣٧ ، ١٧٨ ، المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ج ١ ق ٣ ص ٦٨٦ ، ٧٩٨ ، ج ٢ ق ١ ص ٨ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٩ ،

D. Ayalon, iy. cit., p. 95 .

لكن السلطان لم يحقق لهم رغبتهم وأقطعهم المناطق الساحلية فقط^(٦) .
وقد تغيرت نيات الخوارزميين على الصالح واتفقوا على الخروج
عن طاعته ، وأخذوا يحرضون الأيوبيين بعضهم ضد بعض لاسيما
الناصر داوود صاحب الكرك الذى انضم اليهم وتزوج منهم . كما
انضم اليهم أيضا الصالح اسماعيل صاحب بعلبك وبصرى وبلاد
السواد ، وهاجموا دمشق وعاثوا فيها فسادا حتى خرجت الجيوش
من مصر وأوقعت بهم الهزائم فتشتتوا فى كل الأنحاء ، ولحق بعضهم
بالمغول^(٧) .

وقد ظل بعض الأفراد الخوارزميين يصلون الى مصر فى فترات
متعاقبة ، من ذلك ماحدث سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م اذ وصل الأمير
سيف الدين اقتبار الخوارزمى جمدار جلال الدين خوارزمشاه الى
القاهرة ضمن الوافدين القادمين من شيراز ، وقد استقبلهم السلطان
الظاهر بيبرس استقبالا طيبا^(٨) . واستمرت بقايا الخوارزميين تعمل
فى الجيش المصرى فى الدولة المملوكية الى فترة متأخرة ، ومنهم الأمير
بيدمر بن عبدالله الخوارزمى الذى كان من كبار الأمراء فى مصر وتولى
نيابة حلب وغيرها من الولايات الى أن توفى سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م
فى سلطنة الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة أو الدولة

(٦) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٣١٥ — ٣١٧ ، ٣٢١ — ٣٢٢ ،

Ayalon, op. cit, p. 94 ; S. Lane Poole, op. cit., p. 231.

وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة د ٦ ص ٢٢٣ —
٣٢٥ ،

(٧) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٥ ، د. البلاز
العربى : الأيوبيون ص ١٤٤٢ ، ١٤٨ ،

D. Ayalon, The wafidiya., pp. 94 — 95.

(٨) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٥١٢ .

الملوكية الثانية^(٩) . وفى أثناء الصراع بين الأمير يلغا الناصرى والامير منطاش على الحكم فى مصر سنة ٥٧٩١ هـ / ١٣٨٩م نال منطاش تأييد الأمير محمد شاه بن الأمير بيدمر الخوارزمى وكل الخوارزمية مما يدل على أهمية هذه المجموعة فى مصر آنذاك^(١٠) .

ومن العناصر الوافدة أيضا الأكراد الشهرزورية ، فقد جاء فى سنة ٥٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ثلاثة آلاف من الأكراد الفرسان من شهرزور بنسائهم وأطفالهم هربا من جيوش هولاتو ، واستقبلهم الناصر يوسف الأيوبي أملا فى تدعيم قوته بهم ، الا أن سلوكهم نحوه اتصف بالغطرسة والعناد والشغب فأعرض عنهم . ولم يجد الشهرزورية أمامهم سبيلا سوى اللجوء الى المغيث عمر الأيوبي فى الكرك وكان ينافس الناصر يوسف فى السيطرة على بلاد الشام ، وقد طمع المغيث فى الاستيلاء على غزة ودمشق بمساعدة هؤلاء الوافدين لكنه ضاق هو الآخر ذرعا منهم ، وأخيرا وجد المغيث عمر والناصر يوسف حلا فى الاتفاق على انزال الشهرزورية فى الأماكن الساحلية وبخاصة غزة حتى استأنمهم الظاهر بيبرس فيما بعد وسمح لبعضهم بالحضور الى القاهرة حيث أقطعهم الاقطاعات ، وكانت علاقة الظاهر بيبرس

(٩) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٨٨ ، المنهل الصافى د ٣ تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز ص ٤٩٨ — ٤٩٩ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ص ٤٦١ ،

انظر أيضا :

D. Ayalon, The Wafidiya.., p. 97.

(١٠) ولما ضعف موقف منطاش قبض على محمد بن بيدمر ، انظر : المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٧٣٩ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 95.

بالشهرزورية طيبة منذ أن تزوج من إحدى نساءهم في غزة (١١) .

ولم يحفظ الشهرزوريه للظاهر بيبرس حسن معاملته لهم ، فتآمروا على قتله سنة ٥٦٦٩ هـ / ١٢٧٠م واقامة الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك محله في السلطنة ، وكان الظاهر بيبرس قد جعله أحد أمراء مصر . وقد فشلت المؤامرة وقبض على المتآمرين جميعا وأودعوا السجن (١٢) . واشترك الشهرزورية أيضا في الفتن السياسية التي حدثت في مصر سنة ٥٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م بعد قتل الأشرف خليل ابن الأمير كتبغا الذي انضمت اليه الشهرزورية مع التتار وبين الوزير الشجاعى الذي انضمت اليه الجراكسة ، وقد انتهت الفتنة بقتل الوزير الشجاعى (١٣) .

ونظرا لأن التنظيمات العسكرية التي أدخلها الظاهر بيبرس في الجيش المملوكى تتشابه مع بعض النظم المغولية ، فقد كان من السهل على الفرسان المغول الوافدين الى سلطنة المماليك الاندماج في الجيش المملوكى ، غير أن الظاهر كان حريصا كل الحرص على ألا يتجاوز المغول الوافدون حدودا معينة سواء في العدد المسموح به للالتحاق بالجيش أو حتى في الوظائف العسكرية التي يرقون اليها ، بل حتى في الأماكن التي يمكن أن يتواجدوا فيها . وقد وصلت

(١١) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٤١١ — ٤١٢ ، ٤١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٧ ص ١٠١ ، وأنظر : د. الباز العرينى : المماليك ص ٧٢ ،

D. Ayalon, The wafidiya., p. 97.

(١٢) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٤٩٣ ، ٥٩٥ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 97 ;

(١٣) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٠٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٤٤ ،

D. Ayalon. The wafidiya..p. 97.

المجموعة الأولى من المغول سنة ١٢٦٠ هـ / ١٢٦١ م وكان عددها حوالى مائتى شخص بخلاف النساء والأطفال • وكان هؤلاء جزءا من حملة أرسلها بركة خان القفجاق أو القبيلة الذهبية الى هولاء قبلى أن يقع العداء بينهما بسبب اسلام بركة • وقد أرسل بركة الى قواته يأمرها بالعودة الى بلادها فان تعذر عليها ذلك تذهب الى بلاد سلطنة المماليك • وعندما علم الظاهر بيبرس بذلك كتب الى نواب الشام باكرام الوافدية المغول والاقامة لهم بما يحتاجونه • وأرسل اليهم الخلع والانعامات ، فلما وصلوا الى القاهرة استقبلهم السلطان بنفسه وأمر بانزالهم فى دور بنيت خصيصا لهم فى منطقة اللوق ظاهر القاهرة • وقد منح السلطان بعضهم رتبة أمير مائة ، واندمج بعضهم فى فرقة البحرية وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وتظاهر الوافدون بالاسلام • وقد أرسل الظاهر الى بركة خان يعلمه بما حدث ، وقد شجع ذلك الاستقبال الطيب لتلك المجموعة من جانب الظاهر بيبرس على حضور أعداد أخرى من المغول الى مصر (١٤) •

وفى سنة ١٢٦١ هـ / ١٢٦٢ م قدمت مجموعة أخرى من المغول والبهادرية يزيد عددها على الف وثلثمائة فارس ، فكتب السلطان بيبرس بالاحسان اليهم • وعندما وصلوا الى القاهرة ركب السلطان بنفسه واستقبلهم ، وقد نزلوا عند مشاهدته عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب ، فأكرمهم السلطان ، وعمرت لهم مساكن باللوق

(١٤) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٧ ، الخطط د ٢ ص ١١٧ - ١١٨ ، ابنى كثر : البداية والنهاية د ١٣ ص ٢٣٤ ، ٢٧٦ ، ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ١٣٧ - ١٣٨ ، ١٣٩ ، د.الباز العرينى : المماليك ص ٥٨ - ٦٣ ،

فأنزلوا بها ^(١٥) . وفى سنة ٥٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م وصلت أعداد أخرى من المغول مستأمنين ، وقد شعر الظاهر بيبرس بالخوف من كثرة هجرات المغول ، فجمع أمراءه وقال لهم « أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهة ما يستتراب منه ، والرأى أن نخرج اليهم ، فإن كانوا طائعين عاملناهم بما يغبى والا ... فنكون على أهبة ، من احتاج من العسكر الى شىء أعطيته ، وما أنا الا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولن يجاهد فى سبيل الله » . ثم أمر الجيش بأن يكون على أهبة الاستعداد ^(١٦) .

وخلال حكم الظاهر بيبرس الذى امتد من سنة ٦٥٨ — ٥٦٧ هـ / ١٢٦٨ — ١٢٧٧ م دخل الى دولة المماليك ، مجموعة ثلاثة آلاف فارس منح السلطان بعضهم رتبة أمير طبليخانة ، وآخرين أمير عشرين ، وأمير عشرة ، وجعل بعضهم فى وظيفة ساقى ، وسلحدار وجمدار ، كما اندمج بعضهم فى قوات الأمراء ^(١٧) . ويلاحظ على الظاهر بيبرس أنه كان حريصا على جعل العناصر الوافده من المغول — لاسيما مغول فارس — فى رتب عسكرية أقل من رتب المماليك السلطانية ، كما حرص على انزال هؤلاء المغول فى القاهرة ولم يرسلهم الى الساحل الفلسطينى مثلما فعل مع التركمان أو الشهرزورية أو الخوارزمية . وكان الظاهر قد أنزل « التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها ،

(١٥) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ ، ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ص ١٧٧ — ١٧٩ ، وانظر أيضا :
D. Ayalon, The wafidiya., p. 98.

(١٦) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٥١١ ، ٥١٥ — ٥١٦ ،
Ayalon. The wafidiya., p. 98.

(١٧) ابن كثير : مصدر سابق د ١٣ ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى :
النجوم د ٧ ص ١٩٠ ،
D. Ayalon, The wafidiya... p. 98 — 99.

وقرر عليهم خيلا وعدة ، فتجدد له عسكر بغير كلفة « (١٨) . ويبدو أن الفترة من انتهاء حكم بيبرس الى اعتلاء كتبغا عرش السلطنة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م قد شهدت تراخيا فى هجرة التتار أو المغول الوافدية . وفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م جاء الى مصر تسعة عشر فارسا فقط مع أولادهم (١٩) ، وفى سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م جاء الى مصر فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون حوالى ثلاثمائة فارس من التتار فاكرمهم السلطان الأشرف خليل (٢٠) .

وشهد عصر السلطان كتبغا ٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٥ - ١٢٩٦م أكبر الموجات المغولية الوافدة الى دولة المماليك ، ونعنى بذلك موجة الأويرات المغول ، والمعروف أن السلطان كتبغا نفسه من جنس الأويرات (٢١) ، لذلك كان طبيعيا أن يرحب السلطان كتبغا بهم وأن يعمل على تدعيمهم فى الجيش المملوكى . أما أسباب مجيء هؤلاء الأويرات هو حدوث تطورات داخلية فى دولة مغول فارس لاسيما بعد اعتناق غازان خان مغول فارس الاسلام . ولم يجد هذا التحول قبولا من أتباع الديانة البوذية ، فنشبت الاضطرابات الداخلية فى مختلف الولايات ، وتمرد كثير من أمراء المغول عليه ، كما هرب بعضهم الى خارج فارس . وكان من هؤلاء الهاربين طائفة الأويراتية التى كان يقيم معظم أفرادها فى بغداد وديار بكر ، فجاءت الى الشام

(١٨) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٥٦٥ ،

D. Ayalon, The Wéfidiya... p. 99.

(١٩) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٧١٢ ،

D. Ayalon, The wafidiya... p. 99.

(٢٠) ابن كثير : مصدر سابق د ١٢ ص ٣٣٠ ،

D. Ayalon, The wafidiya.. p. 99.

(٢١) ابن كثير : مصدر سابق د ١٢ ص ٣٣٩ ، والمعروف أن الأويرات هم احدى القبائل المغولية .

وكان عددها يزيد على عشرة آلاف بيت بنسائهم وأولادهم والمقدم عليهم طرغاي (٢٣) . وقد استقبلهم السلطان كتبغا بترحاب كبير ليس بسبب أنه من أصل أويراتى مغولى فحسب ، بل بسبب العلاقات السيئة التى كانت قائمة بين مغول فارس وسلطنه المماليك فى تلك الفترة (٢٣) . وقد ذكر بعض المؤرخين أسبابا أخرى لقُدوم طائفة الأويرات الى انشام ومصر ، منها أن زعيمها طرغاي قد ساعد بايدو ضد كيخاتو ، وأن غازان بعد وصوله الى الحكم عزم على الانتقام منهم . وبعد هزيمة طرغاي وقتل عدد كبير من رجاله هرب الى دولة المماليك . ومنها أن الأويرات عاثوا فسادا فى البلاد واستولوا على قطعان الماشية فى أثناء حكم بايدو ، فأصدر غازان أمره باستعادة هذه القطعان ومعاقبة مرتكبيها بالاعدام (٢٤) .

ولم تكن طائفة الأويرات على دين الاسلام عندما جاءت مصر،

(٢٢) عن وصول غازان الى الحكم فى دولة مغول فارس واعتناقه الاسلام ، انظر : البديسى : شرفنامه ج ٢ ص ١٥ ،

Browne, A literary History of Persia, Vol. III, The Tartar dominion, p. 40 ; Grousset, L'empire des steppes, pp. 452 — 454.

(٢٣) ابن ابيك : مصدر سابق ج ٨ « الدرر الزكية » ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٢ — ٨١٣ ، الخطط ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ، ابن خلدون : مصدر سابق المجلد الخامس ج ١٠ ص ١١٥٩ — ١١٦٠ ، وانظر أيضا عن هجرة الأويرات : ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٣٧٩ ، ابن كثير : مصدر سابق ج ١٣ ص ٣١٣ ،

Cambridge History of Iran, vol. 5, p. 381.

(٢٤) انظر المصادر التالية : ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ٣٤٤ ، ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، ابن أبى الفضائل : تاريخه ص ٥٨٨ — ٥٩١ ،

Howorth, History of the Mongols, Part III, The Mongols of Persia, p. 401.

فأثارت بسلوكها باقى الأمراء فى مصر ، اذ لم يصم الأويرات شهر رمضان ، كما كانوا يأكلون الخيل المقتولة بالضرب لا بالذبح هذا فضلا عن كراهية المصريين والمماليك لغول فارس بسبب ما أحدثوه من خراب وتدمير فى البلاد الاسلامية وقد أنف الأمراء من الجلوس معهم ، وانطلقت الألسنة يذم السلطان كتبغا ، فاضطر الى ارسال عدد كبير منهم الى ساحل الشام ، كما أقاموا فى عثليث ، وفى جنوب لبنان بالبقاع ، وفى قاقون ، وفى منطقة المرج من دمشق • وقد اختلط هؤلاء بالسكان المحليين ودخلوا الاسلام وتفرقوا فى البلاد • أما من بقى منهم فى القاهرة وبوجه خاص زعمائهم فقد أقطعهم السلطان كتبغا اقطاعات جليلة وقدمهم على غيرهم من الأمراء ، وسكن معظم الأويرات منطقة الحسينية ، وأثاروا اهتمام أمراء المماليك بجمالهم النادر ، وتزوج كثير من الأمراء من النساء الأويرات ، كما اندمج معظم الأويرات ضمن ممالك الأمراء • وقد اشترك زعماء الأويرات فى الفتن التى نشبت فى مصر بين العناصر المختلفة فى الجيش المملوكى (٢٥) •

وقد أدت سياسة كتبغا مع الأويرات وتأييده الشديد لهم الى طرده من الحكم ، كم أن زعيم الأويرات طرغاي قتل ، وبالرغم من ذلك فان الأويرات ظلت قوة فاعلة فى الجيش المملوكى تعمل على استعادة مركزها ، ففى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م قبيل الحرب ضد غازان اشترك الأويرات فى مؤامرة واسعة النطاق لقتل الأمير بييرس

(٢٥) ابن الفرات : مصدر سابق د ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٧ ، أبو الفداء ، مصدر سابق د ٤ ص ٣٣ ، المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ، ٣٠٧ ، السلوك د ١ ق ٣ ص ٨١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٦٠ ، الحليل الشافى على المنهل الصافى د ١ ص ٣٦٠ ترجمة رقم ١٢٣٤ طرغاي زعيم الأويرات ،

الجاشنكير وسائر عندما كان الجيش معسكرا في تل العجول • وكان هدف المؤامرة النهائي إعادة كتبنا الى الحكم مرة أخرى ، وقد فشلت المؤامرة وقضى عليها والقى القبض على عدد كبير من الأويرات (٢٦) • وفي سنة ١٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م هربت وحدة من الأويرات العاملة في قوات الأمراء والتحقت بقوات الناصر محمد بن قلاوون الذي كان منفيا في الكرك ويسعى لاستعادة عرشه (٢٧) ولكن بمجرد أن استعاد السلطان الناصر عرشه طرد الأويراتية من خدمته تحت ضغط المماليك السلطانية الذين لم يقبلوا مساواة الأويراتية بهم • ووبرر المماليك السلطانية موقفهم من أن الأويراتية سبق أن خانوا أسيادهم السابقين ولا يوثق بهم (٢٨) • ومن ذلك التاريخ أخذ دور الأويراتية يتلاشى وان ظل بعضهم يمثل عنصر الفساد في القاهرة الى قرب أواخر عصر الناصر محمد بن قلاوون ، من ذلك اشتراكهم سنة ١٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م مع الماس الحاجب نائب الغيبة في أثناء سفر السلطان الناصر محمد الى الحجاز في حفلات الشراب مع الأحداث • وكان ذلك سببا في تغير السلطان على الماس الحاجب فقبض عليه السلطان بعد عودته من السفر وصادر أماله (٢٩) •

(٢٦) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر د ٩ « الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر » تحقيق هانس روبرت روير ص ١٥ ، المقریزی : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ،

D. Ayalon. The Wafidiya..., p. 100.

(٢٧) ابن تغرى بردی : النجوم د ٨ ص ٢٥٨ ، المقریزی : السلوك د ٢ ق ١ ص ٦١ ،

D. Ayalon, The Wafidiya..., p. 100.

(٢٨) المقریزی : السلوك د ٢ ق ١ ص ٨٣ ،

D. Ayalon, The Wafidiya..., p. 101.

(٢٩) المقریزی : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٧ ،

D. Ayalon, The Wafidiya..., p. 100.

وهدأت حركة الوافدين الى مصر من المغول ، واقتصرت على أعداد قليلة كل بضع سنوات وعلى التسرب الفردي في بعض الأحيان، ففي سنة ٥٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م وصل الى مصر حاكم آمد الأم يربدر الدين جنكلى بن البابا ومعه عشرة أفراد . وكان الأمير جنكلى قائدا شهيرا ومقدما كبيرا عند مغول فارس ، ومع ذلك كان يناصح السلطان الناصر محمد بن قلاوون ويدله على عورات المغول ، ومن أجل ذلك أكرمه السلطان وأعطاه امرأة ألف (٣٠) . وفي سنة ٥٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م قدم الى مصر مائتان من المغول بنسائهم وأطفالهم ومقدميهم ، ومنهم بعض سلاحدارية غازان وبعض أقارب الأمير سلا . وقد رتب لهم السلطان الرواتب وأعطى لهم الاقطاعات ، وفرق منهم جماعة على الأمراء (٣١) . وفي نفس العام ٥٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م وصل من القبيلة الذهبية رسولا من قبل نغاي ابن أخ بركة خان وبصحبه جوارى كثيرة ومماليك بلغ عددهم أربعمئة مملوك مع هدية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فأخذ منهم السلطان عشرين مملوكا في حين اشترى الأمراء باقى المماليك (٣٢) . وفي أواخر شعبان من سنة ٥٧١٧ هـ / ١٣١٧ م عبر الفرات قائد مغولى كبير هو طاطاي في مائة فارس بنسائهم وأولادهم ، ومروا بدمشق ثم دخلوا القاهرة في شوال من نفس العام (٣٣) . وفي سنة ٥٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م جاءت الى مصر ابنة أخى أزيك خان القبيلة الذهبية كى يتزوجها الناصر محمد

(٣٠) ابن كثير : مصدر سابق د ١٤ ص ٢٩ .

(٣١) ابن ابيك : مصدر سابق د ٩ ص ١٢٣ ، المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥ ،

D. Ayalon, The Wafidiya., p. 101.

(٣٢) ابن ابيك : مصدر سابق د ٩ ص ١٢٨ .

(٣٣) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ١٧٤ ،

D. Ayalon, The Wafidiya., p. 101.

وصحبتها أربعمائة وأربعين مملوكا اشترى السلطان منهم مائتي مملوك، واشترى الأمراء الباقين (٣٤) . وتجدر الإشارة هنا الى أن العناصر التي كانت تأتي الى مصر من دولة مغول القفجاق انما كانت تأتي بموافقة خان القبيلة نظرا للعلاقات الطيبة التي كانت تربط سلاطين المماليك بهذه الدولة (٣٥) . أما العناصر التي كانت تأتي من دولة مغول فارس فهي عناصر اما هاربة من السلطات الحاكمة أو مطرودة ومنفية ، وذلك نتيجة لطبيعة العلاقات العدائية بين تلك الدولة وسلاطين المماليك ، ومع ذلك فقد حرص سلاطين المماليك على الاستفادة من كلا الدولتين بادماج الفرسان المقاتلين القادمين سواء من دولة مغول فارس أو القبيلة الذهبية في الجيش المملوكي دعما وتقوية له . والأمر الثاني الجدير بالإشارة هو أن هذه العناصر جميعها اندمجت بالفعل في الجيش المملوكي ودون أن تؤثر على سياسة المماليك تجاه الدولتين .

ومن الشخصيات المغولية التي وفدت الى دولة المماليك في عهد الناصر محمد بن قلاوون القائد الشهير دمردائش بن جوبان . وقد هرب دمردائش الى مصر سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧ م ومعه مماليكه فرارا من الخان أبى سعيد خان مغول فارس بعد ثورة جوبان والد دمردائش وقتله . وقد أثار دمردائش أو « تمرتاش » في مصر الفتن وأخذ يحرض السلطان الناصر محمد للاستيلاء على بلاد الروم . ونظرا للعلاقات الطيبة بين الناصر محمد بن قلاوون وأبى سعيد خان مغول فارس في ذلك الوقت فقد أمر الناصر محمد بقتل تمرتاش

(٣٤) ابن أبيك : مصدر سابق ج ٩ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٣٥) انظر : د. حياة ناصر الحجي : العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق . حوليات كلية الآداب جامعة الكويت - الحولية الثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ م .

« دمرداش » ثم فرق مماليكه على الأمراء (٣٦) . وقد سعى مماليك دمرداش سنة ٥٧٣٣ هـ / ١٣٣١ م الى احداث فتنة فى مصر وقتل كبار الأمراء المماليك أخذا بثأر أستاذهم دمرداش لكن المؤامرة كشفت قبل تنفيذها وقبض عليهم حيث حل بهم العقاب (٣٧) .

ومن الشخصيات الشهيرة أيضا التى جاءت الى مصر من دولة مغول القفجاق الأمير قوصون الناصرى . وكانت المجموعة التى أحضرت قريية القائد أزيك قد جلبت معها الأمير قوصون ، فاشتراه الناصر بثمانية آلاف درهم . وبلغ الناصر فى الاحسان اليه حتى زوجه من ابنته سنة ٥٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ولما توفى الناصر محمد تعصب قوصون الى المنصور أبى بكر ابن الناصر حتى سلطنه وقام قوصون بتدبير الملكة . وبعد تولية علاء الدين كجك فى السلطنة أصبح قوصون نائبا للسلطنة سنة ٥٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م . ونتيجة لسياسة قوصون المناهضة لكبار الأمراء فقد ثار هؤلاء وتمكنوا من القبض عليه ونفيه الى الاسكندرية (٣٨) .

(٣٦) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، البليسى : مصدر سابق د ٢ ص ٣٠ ، النويرى : نهاية الأرب د ٣١ حوادث سنة ٧٢٨ ورقة ٨٦ ، أبو الفداء : مصدر سابق د ٤ ص ٩٨ — ٩٩ ، ابن كثير : مصدر سابق د ١٤ ص ١٣٣ ، ابن حبيب : تنكرة النبیه د ٢ ص ١٨٠ ،

Grousset, op. cit., p. 484 : Cambridge Hist. of Iran, vol. 5, p. 410 — 411.

وانظر ايضا :

Howorth, op. cit., p. III, p. 616

(٣٧) المقرئى : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٣٨) ابن حجر : الدرر د ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور د ١ ق ١ ص ٤١٠ — ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١٠ ص ٤٦ — ٤٧ ، ابن حبيب : تنكرة النبیه د ٣ ص ٣٢ — ٣٤ .

وفى سنة ٥٧٤١هـ / ١٣٤٠ م وهى سنة وفاة الناصر محمد بن قلاوون دخلت أراضى سلطنة المماليك مجموعة كبيرة من الوافدية المغول مرة أخرى بسبب غلاء شديد حدث فى بلاد الشرق • وقد كتب الناصر محمد الى نائب حلب « بتمكينهم من العبور الى حيث شاعوا من البلاد ، وأوصاه السلطان بهم ، فملاؤا بلاد حلب وغيرها ، وقدم منهم الى القاهرة نحو المائتى فرد ، فاختار السلطان منهم طائفة نحو ثمانين شخصا جعل بعضهم فى الطباق ، وأسكن منهم عدة فى القلعة ، وأمر منهم جماعة ، وفرق الباقى على الأمراء » • • • • • وبانتهاء موجة سنة ٥٧٤١هـ / ١٣٤٠م تكون حركة هجرة الوافدية الى دولة المماليك قد انتهت بالفعل • وقد كان لذلك أثره على أجناد الحلقة فى الجيش المملوكى ، اذ أن هذه الوحدة من الجيش قد توقفت عن استقبال امدادات بشرية ذات قدرات عسكرية بالقياس الى فرق المماليك السلطانية والأمراء المماليك الذين استمروا فى استقبال دماء جديدة (٣٩) • وهكذا أصبحت الحلقة مضطرة الى تعزيز قواتها بأعضاء جدد من أبناء الأمراء ومن السكان المحليين الذين كانوا على مقدرة عسكرية ضعيفة بالقياس الى طوائف القرسان التى كانت ترد من قبل (٤٠) •

(٣٩) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٥ — ٥١٦ ، ٥١٧ ،

D. Ayalon.. The wafidiya.. p. 101

(٤٠) أنظر :

D. Ayalon.. The wafidiya.. p. 102.

والمعروف ان الجيش المملوكى فى مصر تالف من ثلاث فئات رئيسية هى :

أولا : المماليك السلطانية او مايسمى أحيانا مماليك السلطان ، وهذه الفئة تنقسم عادة الى قسمين :

١ — مماليك السلطان الحاكم وهم المشتروات أو الأجلاب
او الجلبان •

وبالإضافة الى العناصر المغولية والكردية والخوارزمية التي وفدت الى دولة المماليك واندمجت فى جيشها لاسيما أجناد الحلقة ، فقد جاء الى سلطنة المماليك أيضا عناصر قليلة من سلاجقة الروم ونالوا حظوة عند السلاطين . وكان الظاهر بيبرس عندما استولى على مدينة قيصرية سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م قد أخذ مماليك سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو (٤١) . أما الشخصيات الرومية التي وصلت الى دولة المماليك بصورة فردية فمنها الأمير شرف الدين بن حسين بن أبى بكر بن سعد بن جندرباك الرومى

= ٢ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من خدمة السلاطين الآخرين وهذه الفئة تنقسم بدورها الى قسمين :

١ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من مماليك السلاطين السابقين وهذه المجموعة تسمى القرانيس أو القرائنة .

٢ — المماليك الذين دخلوا فى خدمة السلطان الحاكم من مماليك الأمراء اما بسبب الوفاة أو الطرد لآسيادهم ، وهذه المجموعة من المماليك تسمى السيفية .

ثانيا : مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء .

ثالثا : قوات الحلقة أو أجناد الحلقة ، وهم مجموعات من الأحرار الفرسان . وقد وجد داخل هذه الحلقة وحدة خاصة تتكون من أبناء الأمراء والمماليك كانت تسمى أولاد الناس .

وللمزيد من التفاصيل انظر : د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٣ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الأمشى د ٤ ص ١٤ — ١٦ « طبع بيروت دار الكتب العلمية » ،

D. Ayalon, I Studies on the Structure of the Mamluk army, p. 204 in « Studies on the Mamluks of the Egypt » N. 1.

II The System of Payment in Mamluk Military Society ; p. 42, in « Studies... » N. VIII.

(٤١) المقرئى : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

وقد نال تقدير السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٤٢) * ومنها أيضا الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي المعروف بالحاجب ، وكان قد دخل في خدمة الأمير حسام الدين طرنتاي نائب السلطنة في عهد المنصور قلاوون * ثم أخذ بكتمر يترقى حتى ولى الوزارة والحجوبية ونيابة غزة وصفد في أيام الناصر محمد ، وقد توفي الأمير بكتمر سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م (٤٣) * وأخذت أعداد الروم تتزايد ، ففي سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م نسمع أن من بين ممالك الوزير علم الدين بن زنبور الدميخي خمسين مملوكا من الروم (٤٤) *

الوضع العسكري للوافدية في الجيش المملوكي :

لقد دخل الوافدية دولة المماليك كرجال أحرار ، وظلوا كذلك طيلة بقائهم في مصر ولما كانت البداية الطبيعية للترقى الى المناصب العليا في الجيش المملوكي هو نظام الرق ، فان الوضع العسكري للوافدية كان أقل من معظم المماليك * وبالنسبة للمغول أو التتار فان وضعهم كان أعلى من التركمان والأكراد * ولقد وضح هذا التفوق من حقيقة أن عددا كبيرا من هؤلاء المغول سمح له بالإقامة في القاهرة ، كما أن عددا مناسبا أيضا منهم خدم ضمن ثوات الأمراء (٤٥) ، كما اندمج عدد من الأويراتية وان كان محدودا في المماليك السلطانية ، والأهم من ذلك أن صفوة قليلة دخلت في الخاصكية ، فقد ذكر المقرئ في حوادث سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م أن

(٤٢) المقرئ : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣١٣ ، ابن تغري بردي : النجوم د ٩ ص ٢٧٦ .

(٤٣) المقرئ : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٤٤) ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٥٤٥ .

(٤٥) المقرئ : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨١٣ ، الخطط د ٢ ص ٢٣ ،

ابن تغري بردي : النجوم د ٧ ص ١٩٠ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

الشيخ على الأديراتى وكان قد أسلم وتبعه جماعة من أولاد المغول
 « مثل بحضرة السلطان من قلعة الجبل فى ثامن عشر ذى القعدة
 ومعه اخوته الأقوش وعمر وطوخى وجوبان وجماعة غيرهم ، فأحسن
 السلطان اليه والى من معه ورتب بعضهم فى جملة الخاصكية ، ثم
 نقل الى امريات منهم الأقوش وتمر وعمر وهم اخوة » (٤٦) ، كما
 تصاهر بعض المغول الوافدين مع الأمراء • غير أن أكثر المغول التحقوا
 بقوات الحلقة (٤٧) ، ومن المعروف أن وضع الحلقة العسكرية فى
 ذلك الوقت كان أقل شأنًا من باقى الطوائف المملوكية •

وكانت فرصة الترقية أو الحصول على رتبة كبيرة أمام الوافدية
 محدودة وربما نادرة ، ولم تزد عادة عن رتبة أمير طبلكاناه •
 وطرغاي قائد الأويرات مع أهمية فرقته التى جاء على رأسها ، ومع
 استقبال كتبغا الطيب لبنى جنسه فانه أى طرغاي لم تزد رتبته التى
 منحها له كتبغا عن رتبة طبلكاناه • كما تسلم نائبه امرة عشرة فى
 حين حصل الباقى على اقطاعات فى الحلقة (٤٨) ، ويبدو أن هذه
 السياسة قد وضعها الظاهر بيبرس نفسه الذى استقبل الموجات
 الأولى من الوافدية ، وخشى من استيلاء هؤلاء الوافدين على السلطة
 فى البلاد ، وعبر عن تخوفه بقوله للأمراء « أخشى أن يكون فى
 مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه » (٤٩) • وقد صح ما توقعه الظاهر

(٤٦) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٧٠٨ - ٧٠٩ ، الخطط

د ٢ ص ٢٢ - ٢٣ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٤٢ ، المقرئى : الخطط

د ٢ ص ٢٢ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

(٤٨) المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢٣ •

(٤٩) المقرئى : السلوك د ١ ق ٢ ص ٥١٥ ،

D. Ayalon, The Wafidiya.. p. 90.

بيبرس ، فمحاولة السلطان كتبغا فيما بعد دفع العناصر الأويراتية الى الأمام ومساواة رؤساء الأويراتية مع الأمراء المماليك انتهت بطرده وحبس طرغاي زعيم الأويراتية وقتله ومجموعة أخرى من أكابرهم على يد السلطان حسام الدين لاجين (٥٠) .

وبرغم ماحدث للأويراتية فقد ظل نفوذهم قائما فى الجيش ، والدليل على ذلك محاولتهم الانقلاب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م واعادة كتبغا الى الحكم مستغلة تهديدات غازان خان مغول فارس بالهجوم على بلاد الشام ، غير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على زعمائهم وشنق نحو الخمسين منهم (٥١) . فسياسة تحجيم وضع الوافدية فى الجيش المملوكى وحتى فى الأماكن التى ينزلون فيها تعود الى عهد الظاهر بيبرس الذى رغم حاجته الى المغول الوافدين رأى فيهم خطورة على النظام العسكرى المملوكى الذى جعل الرق المدخل الرئيسى للترقى الى المراكز العليا فى الجيش والدولة بما فيها منصب السلطنة ذاته ، وذلك وفق تدرج وظيفى ثابت ومعروف أما موضوع المقدرة العسكرية للوافدين فلم تكن هى المعيار للترقى ، والدليل على ذلك الخوارزمية الذين كانوا طبقة عسكرية من الطراز الأول واشتركوا فى المعارك الشهيرة منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب ، ومع ذلك فانهم لم يندمجوا فى الجيش المملوكى فى مصر الا على نطاق محدود جدا ، وطردهوا الى منطقة الساحل بعيدا عن مركز الأحداث الرئيسية فى القاهرة (٥٢)

(٥٠) ابن حجر : الدرر د ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ ، المقرئى : الخطط

د ٢ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٥١) انظر ماسبق ص ٤٣—٤٤ ، ابن أيبك : مصدر سابق ص ١٥ ،

المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ،

(٥٢) انظر :

D. Ayalon, The Wafidiya.. pp. 90 — 93.

ويبدو أن السياسة التي وضعها الظاهر بيبرس لمعاملة الوافدية قد طرأ عليها بعض التعديل في عهد ناصر محمد بن قلاوون ، فوصل بعضهم لأهميتهم إلى رتبة أمير مائة مثل الأمير جنكلى بن البابا الذى وفد إلى مصر سنة ٧٠٣ هـ وزميله نيروز ، فحصل كلاهما على رتبة أمير مائة ، كما أصبح للأمير جنكلى مكانة سامية في مجلس السلطان ، فكان رأس الميمنة (٥٣) ، كذلك حصل الأمير شرف الدين حسين الرومى على امرة مائة أيضا في عهد الناصر محمد بن قلاوون (٥٤) ، أما الأمير قوصون وهو من القبيلة الذهبية فقد وصل إلى منصب نائب السلطنة في عهد السلطان علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون (٥٥) . ويبدو أن التفسير المقبول لتلك الحالات هو حضورهم بصورة فردية أو ضمن جماعات صغيرة لا تشكل خطرا على سلطنة المماليك ، من أجل ذلك لم يجد السلطان الناصر محمد غضاظة في منح هؤلاء الزعماء الوافدين رتبا عالية وصلت إلى أمير مائة ثم ان ظروف دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون وما اعتراها من ضعف بعد وفاته حيث ارتقى العرش أبناؤه وهم صغار السن ساعدت الأمير قوصون على الوصول إلى ذلك

(٥٣) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٩٥٠ ، الخطط د ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ابن كثير : مصدر سابق د ١٤ ص ٢٩ ،

D. Ayalon, The wafidiya., p. 93.

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ابن حجر : مصدر سابق د ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ ترجمة رقم ١٨٥١ ،

D. Ayalon, The wafidiya., p. 93.

(٥٥) ابن حجر : مصدر سابق د ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٩٠ — ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١٠ ص ٤٦ — ٤٧ .

المنصب (٥٦) . أما هجرات الوافدين الضخمة فكما سبق القول لم ترد الرتب فيها عن امرة طبلخانة (٥٧) . ومهما كان الأمر فقد كانت نظرة المماليك السلطانية الى الوافدية نظرة تحقير وازدراء ، ففي مشاجرة بين اثنين من المماليك قال أحدهما للآخر : « أنت واحد منفى وافدى ، تجعل نفسك مثل مماليك السلطان ! » وكادت تقع فتنة لولا تدارك كبار الأمراء الموقف (٥٨) .

(٥٦) عن احوال دولة المماليك في ذلك الوقت انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ح ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

(57) D. Ayalon, The wafidiya, p. 93.

(٥٨) المقرئى : السلوك ح ٢ ق ١ ص ٢٢ ،
D. Ayalon, The wafidiya.. p. 93 ;

البحث الثالث

الصراع بين الترك والجراكسة في الجيش المملوكي
الى نهاية عصر الظاهر برقوق

الصراع بين الترك والجراكسة في الجيش المملوكى

جرت العادة عند المؤرخين على تقسيم فترة حكم المماليك في مصر والشام الى عصرين : الأول وهو عصر المماليك البحرية أو الدولة المملوكية الأولى ، وقد استمر هذا العصر من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م الى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م ، وفيها كانت غالبية الجيش المملوكى الحاكم من الترك القبجاق . ذلك أن أعدادا غفيرة من هذا العنصر كان قد أسرها المغول في هجماتهم على بلاد الشرق والشمال وباعوهم رقيقا فنقلهم التجار من بلد الى آخر ، واشترى الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم وأسكنهم قلعة الروضة تجاه مدينة القسطنطينية وأطلق عليهم اسم البحرية . ومع أن عدد هؤلاء البحرية لم يتجاوز في البداية ألف مملوك فإن الصالح نجم الدين رجحهم على باقى العناصر الأخرى في جيشه ، وجعلهم بطانته والمحيطين بدلهيزه ، وكان هؤلاء الترك البحرية من القبجاق يعظمون أستاذهم الصالح نجم الدين ويهابونه (١) .

ومنذ أواخر حكم الصالح نجم الدين أيوب أصبح المماليك

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٢١ ، كتاب السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٦٠ ، ج ١ ق ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ابن أيك الدوادرى : كنز ، الدرة الزكية تحقيق أولرخ هارمان القاهرة ١٩٧١ م ص ١٤ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين تحقيق د. سعيد عاشور ص ٢٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ٦ ص ٣١٩ — ٣٢٠ ، ٣٣١ ، د. سعيد عاشور العصر المماليكى في مصر والشام ص ٥ ، د. الباز العرينى : المماليك طبع بيروت ص ٥٤ — ٥٥

البحرية هم العنصر الرئيسى فى صناعة الأحداث السياسية الكبرى فى مصر ، فهم الذين ردوا الفرنج على أعقابهم وهزمهم فى معركة المنصورة سنة ٥٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م وصاروا يتفخرون بهذا العمل ويقولون « نحن خلاصنا مصر والشام بسيوفنا من الفرنج » . وهم الذين قتلوا تورانشاه آخر سلاطين بنى أيوب فى مصر وولوا مكانه فى الحكم شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب ، التى اعتبرت أولى سلاطين المماليك الترك فى مصر (٢) وبعد ذلك ازداد نفوذ المماليك البحرية بزعمارة أقطاي وطغوا وتجبروا فى مصر مما دعا المعز أيك وزوجته شجر الدر الى العمل للخلاص منهم وكسر شوكتهم ، وبالفعل تم قتل الفارس أقطاي فهرب كثير من زعمائهم الى خارج مصر (٣) . وبعد قتل المعز أيك وشجر الدر عاد نفوذ البحرية مرة أخرى على مسرح الأحداث فى مصر وأصبحت لهم الكلمة العليا فى ظل سلطان صغير قاصر هو المنصور على بن عز الدين أيك غير أن قطز أكبر مماليك المعز أيك استغل اقتراب خطر المغول على الشام وعزل المنصور وعين نفسه سلطانا بحجة أن البلاد فى حاجة الى سلطان قاهر يقاوم عن المسلمين عدوهم . ونجح قطز فى جمع شتات البحرية وواجه المغول وكان النصر حليف المماليك فى المعركة الحاسمة المعروفة وهى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، وهو النصر الذى كان بمثابة الواجهة الشرعية لحكم المماليك فى مصر والشام بعد أن

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ق٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥٨ - ٣٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ . ويلاحظ ان المؤرخ ابن حنبل اعتبر ان السلطان الاول من ملوك الترك هو عز الدين أيك التركمانى - ابن حنبل : الجواهر الثمين ص ٢٥٦ . وانظر عن هذه الفترة ايضا : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤ - ١١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٨٥ ، وانظر مقال فرقة البحرية فى الجيش المملوكى للباحث .

أثبت الأيوبيون فشلهم فى حماية البلاد • وإذا كان المظفر قطز بطله النصر فى عين جالوت قد قتل غيلة وهو فى طريق عودته الى القاهرة فان شريكه فى صنع النصر وقَاتله فى نفس الوقت وهو الظاهر بيبرس، قدر له أن يلى السلطنة ليضع الأسس الثابتة لدولة المماليك البحرية أو الدولة المملوكية الأولى التى استمرت فى الحكم حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م عندما نجح عنصر آخر من الترك غير القبجاق هو العنصر الجركسى فى الوصول الى الحكم (٤) •

وبدا المماليك البحرية يحكمون مصر ثم امتد نفوذهم الى الشام فى عهد الظاهر بيبرس ، ودافعوا عن تلك البلاد دفاعا بطوليا ضد المغول من ناحية ، وضد الصليبيين من ناحية أخرى • وكان الظاهر بيبرس قد بنى جيشا قويا لمواجهة تلك الأخطار واعتمد فى ذلك على عناصر من نفس جنسه الترك القبجاق ، فكانوا هم الأكثرية فى الجيش، كما كانوا هم أصحاب الرتب العليا فيه (٥) • وقد ضم الجيش المملوكى

(٤) عن هذه الأحداث انظر المراجع التالية : د. سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، أحمد عبد الكريم : المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ٥٣ — ٧٠ ، ٧٣ — ١٠٠ .

(٥) موطن هؤلاء الترك القبجاق فى العصور الوسطى هو حوض نهر أرتش ، ثم اتجهت فئة منهم جنوبا نحو حوض نهر سرداريا سيحون فى القرن الثانى عشر / السادس الهجرى ، كما اتجهت فئة أخرى الى شرق اوربا فى تلك الفترة ، وقد دخل هؤلاء جميعا فى حوزة التتار لاسيما بعد أن توجه باطوخان بن دوش خان بن جنكيز خان نحو البلاد الشمالية وأخضع لسلطانه سكانها من القبجاق وغيرهم ، وغدت مملكة باطوخان ومقرها صراى على نهر الفولجا تمتد من خوارزم الى أطراف القسطنطينية ومن بلاد الروس الى القوقاز وبذلك امتزج التتار والمغول بالترك فى هذه البلاد .

انظر د. الباز العرينى : المماليك ص ٥٤ — ٥٥ .

وانظر مقال : البحرية فى الجيش المملوكى للباحث .

بالاضافة الى هؤلاء عناصر من أجناس أخرى بعضها قريبة من جنس الترك بل تتدرج تحت نفس الاسم وان كانت من قبائل أخرى مختلفة عن القباجق . • ومنذ أيام الظاهر بيبرس كثرت أيضا العناصر المغولية الوافدة الى مصر حيث انضم بعضها الى الجيش المملوكي، وانتشر الباقي في مصر والشام ولعبوا دورا كبيرا في الأحداث السياسية والمؤامرات العسكرية التي حدثت بين طوائف المماليك في العصر المملوكي الأول . • وقد بلغ عدد المغول الوافدين الى مصر في عهد بيبرس نحو ثلاثة آلاف . وظلت جموع الوافدية المغول تصل الى مصر تباعا حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦) .

على أن عنصرا جديدا برز في الجيش المملوكي منذ عهد السلطان قلاوون سنة ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م ، وهو العنصر الجركسي ، فقد أفرد قلاوون في سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م ثلاثة آلاف وسبعمائة من مماليكه من الآص والجركس وجعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية (٧) . ويبدو أن اختيار السلطان قلاوون لهذا العنصر دون سواه انما يرجع الى وفورته في الأسواق فضلا عن رخص ثمنهم بالقياس الى أثمان العناصر الأخرى . • وقد بلغ متوسط ثمن الرأس من الجراكسة ١١٥ ديناراً في حين كان متوسط ثمن الرأس من الترك ١٣٥ ديناراً (٨) .

وفيما يتعلق بأصل جنس الجراكسة فان علماء الأنساب يصنفونهم

(٦) انظر مقال الوافدية للباحث .

(٧) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٥٦ ، د. سعيد عاشور : العصر المملوكي ص ١٣٥ ، د. حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ص ١١ - ١٢ ،

D. Ayalon, The Circassians in the Mamluk Kingdom, p. 137.

(٨) د. سعيد عاشور : العصر المملوكي ص ١٣٥ .

ضمن عناصر الترك ، وأنهم من قبيلة مشهورة هي الجركس التى تسكن فى بلاد الشمال فى التلال المحيطة بسهل القبجاق ^(٩) . واعتبرهم المقرئى مع اللاص والروس فى المملكة التتارية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وقاعدتها صراى على نهر الفولجا ^(١٠) . وكان هؤلاء الجراكسة يعيشون فى فقر ومعظمهم من المسيحيين ^(١١) . وربما كان ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أشار الى تواجد عدد منهم بين الرقيق المشتري بواسطة الصالح نجم الدين أيوب مؤسس فرقة البحرية ^(١٢) . وقد ظل المماليك الجراكسة طوال العصر المملوكى الأول يشعرون بضالة قيمتهم وعدم أهميتهم بالقياس الى طوائف المماليك الأخرى برغم سعى هؤلاء الجراكسة الحثيث للاستيلاء على السلطة من الترك القبجاق .

ومن الدليل على ذلك أن الأمير قرا سنقر وكان من كبار الأمراء الجراكسة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما شق عصا الطاعة على السلطان واستجار بمهنا زعيم عرب الشام قال قرا سنقر عن نفسه لزعيم العرب مهنا « أنا فى الأصل قطعة مملوك جركسى ، رأسى ورجلى مايسوو ثلاث مائة درهم ، وايش هو أنا اذا قتلت » ^(١٣) . وقد اهتم السلطان قلاوون بمماليكه الجراكسة اهتماما زائدا من حيث تربيتهم ومعيشتهم حتى أنه كان يخرج فى غالب أوقاته الى

(9) D. Ayalon, The Circassians.. p. 136.

(١٠) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٤١ ، د. الباز العرينى : المماليك ص ٦٣ .

(١١) د. الباز العرينى : مرجع سابق ص ٦٣ ،
D. Ayalon, The Circassians pp. 136 — 137.

(12) D. Ayalon, The Circassians ... p. 137.

(١٣) ابن ابيك : مصدر سابق ج ٦ ص ٢٢٤ .

للأرجبة ليكشف بنفسه عن طعامهم ويختبر جودته ورداعته ، وينزل عقوبات قاسية على المشرف والأستادار فى حالة تهاونهما فى العناية بالماليك ، وكان السلطان قلاوون يقول فى ذلك « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم الماليك » (١٤) .

وبدأ الجراسة يتسللون الى الصفوف الأولى بين الماليك فى محاولة للوصول الى الحكم بعد أن منحهم السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل الترقيات وأصبحوا فى وظائف السلاحدارية والجمقدارية والجاشنكيرية والأوشاقية . ثم زاد السلطان الأشرف خليل من أعداد الجراكسة . واشترى منهم حوالى ألفى مملوك من أسوق الرقيق فى ثغر كافا . وكانت الماليك السلطانية فى عهد أبيه قلاوون قد بلغت ستة آلاف وسبعمائة مملوك فأراد الأشرف خليل تكميل عدتها الى عشرة آلاف ، ثم جعلهم طوائف ، فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها البرجية وأسكنها فى أبراج القلعة وكانت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة ، كما أفرد جنس الخطا والقيجاك وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية الزمردية (١٥) .

ولعل هذا الفصل بين عنصرى الترك والجركس فى أطباق القلعة قد جعل كل فريق يستجمع عناصره وقوته ويجعل الصراع مع الفريق الآخر هدفاً فى سياسته ، ثم حدث تطور هام فى نظام

(١٤) المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢١٣ .

(١٥) المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢١٤ ، د. الباز العرينى : مرجع سابق ص ٦٤ .

(١٦) المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢١٤ ، د. سعيد عاشور : العصر المالىكى ص ١٣٧ ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الماليك ص ١٣ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٣ .

تربية المماليك البرجية عندما سمح لهم الأشرف خليل بالنزول من القلعة نهارا ثم العودة ليلا للبيات بها (١٧) . وقد ترتب على ذلك انغماس المماليك البرجية فى الحياة العامة فى مصر والاطلاع على خفايا الأمور بما فيها من صراع بين الطبقات لاسيما بقية عناصر المماليك ، وكذلك اطلاع بقية العناصر المملوكية على أحوال المماليك البرجية وما هم فيه من نعمة ومكانة عند الأشرف خليل ، وهو الأمر الذى أدى الى حسد هذه العناصر للمماليك الجراكسة والتربص لايقاع الشر بهم والتخطيط للخلاص منهم (١٨) .

ولم يكن الأمر سهلاً أمام الجراكسة كى تصل الى الصفوف الأولى فى الجيش المملوكى فى وقت كانت السيادة الكاملة لعنصر الترك القيقاق . وكانت المحاولة الأولى للجراكسة لكسر احتكار الترك للمناصب العليا بعد قتل السلطان اشرف خليل بن قلاوون ، فاتخذوا من قتله ذريعة للثورة والانتقام من قاتليه . وبالفعل نجح الجراكسة فى المحرم من سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م فى قتل الأمير بيدرا وغيره من الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل . ثم اشترك الجراكسة أيضاً مع الأمير سنجر الشجاعى مع أنه تركى فى تعيين الناصر محمد ابن قلاوون . والواقع أن الوزير سنجر الشجاعى كان يعمل لصالحه مستخدماً الجراكسة فى تحقيق أهدافه التى تتلخص فى ازاحة الأمير كتبغا المغولى وتهيئة الجو لنفسه للاستئثار بالسلطة فى البلاد . ومن أجل ذلك أنفق الشجاعى فى يوم واحد على الجراكسة ثمانين ألف دينار ، وقرر معهم أن من أحضر رأس أمير من خصومه كان اقطاعه

(١٧) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ ، د. سعيد عاشور :

العصر الممالكى ص ١٣٧ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٤ .

(١٨) أنظر د. سعيد عاشور : العصر الممالكى ص ١٣٧ .

له • كما كان يستميلهم بقوله « أنتم منى وأنا منكم » فأجابوه بدورهم « مالنا خروج عنك » (١٩) •

لقد أدرك الشجاعى نوايا الجراكسة لكنه لم يقدر تماما حجم قوتهم أو خبرتهم المحدودة بالعمل السياسى والعسكرى فى ذلك الوقت، لذلك كان طبيعيا أن تفشل مؤامرتة ، وأن يتلقى المتآمرون معه من الجراكسة ضربة شديدة على يد كتبغا الذى استقر نائباً للسلطنة سنة ١٢٩٣ هـ / ١٢٩٤ م فى حين أودع السجن كبار الجراكسة • ثم شرع كتبغا فى تقرير عقوبات صارمة على من تبقى من هؤلاء الجراكسة ، فأمر باحصائهم فكانوا أربعة آلاف وسبعمائة • وقد رسم لهم كتبغا بالنزول من أبراج القلعة وأن يسكنوا فى الأبراج التى فى سور القلعة ، وأمرهم بعدم مغادرة أماكنهم الجديدة وعدم الركوب ، كما فرض عليهم غرامة مشددة • أما من شك فى مؤازرته للشجاعى فقد أودعه سجن الاسكندرية ، وفى مقدمة هؤلاء الأمير بييرس الجاشنكير ومعه بعض أفراد العشرات (٢٠) •

ولم يهدأ الجراكسة بعد تشييتهم على يد كتبغا ، ورأوا فى

(١٩) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٧٩٩ — ٨٠٢ ، الصمدى : الوافى بالوفيات د ٤ ص ٣٥٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر د ٨ الدرّة الزكية ص ٣٥٣ — ٣٥٦ ،

D. Ayalon, The wafidiya.. p. 97 ;

والمعروف أن الأمير كتبغا كان مغولى من قبيلة الأويرات . انظر بحث الوافدية ص

(٢٠) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٧٩٨ — ٨٠٢ ، الصمدى : الوافى د ٤ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ ، ابن أيبك : الرّة الزكية ص ٣٥٠ — ٣٥٦ ، ابن اياس مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، د. سعيد عاشور : العصر المالىكى ص ١٣٧ — ١٣٨ ، د. الباز : مرجع سابق ص ٦٤ — ٦٥ ، د . حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧ — ١٨ •

انزالهم من القلعة اهانة لهم وتفتيتا لعصبيتهم وقوتهم ، وفى العاشر من المحرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م ثار حوالى ثلاثمائة من المماليك الأشرفية (ممالك الأشرف خليل) المطرودين من القلعة وهجموا على الاسطبلات وأخذوا الخيول ، كما فتحو سوق السلاح وباب سعادة • وظلوا يطوفون فى الشارع طال الليل ، وحاولوا حصار القلعة الا أن محاولتهم باءت بالفشل وتمكن كتبغا من القضاء على ثورتهم والقبض عليهم ، فصلب بعضهم ووسط البعض الآخر • وقد أقنعت هذه الثورة كتبغا بضرورة الخلاص من بيت قلاوون نفسه طالما أن هؤلاء الجراكسة يرفعون شعار الثأر لمقتل الأشرف خليل حتى ولو كان ذلك ستارا يخفى نوايا الجراكسة الحقيقية • وهكذا أسرع كتبغا بعزل الناصر محمد بن قلاوون وتنصيب نفسه سلطانا بعد أن أقنع باقى الأمراء بضرورة وجود سلطان كبير يخضع المماليك ويقمع العربان (٢١) •

وبوصول كتبغا وهو من أصل أويراتى مغولى الى عرش السلطنة فى مصر برز عنصر الأويرات المغول فى الجيش الملكى ، وعمل كتبغا على تدعيم ذلك العنصر ودفعه الى الصفوف الأمامية • وكانت قد حدثت تطورات هامة داخلية فى دولة مغول فارس لاسيما بعد اعتناق الخان غازان الاسلام وهو الأمر الذى لم يلق قبولا من أتباع الديانة البوذية فنشبت الاضطرابات فى مختلف الولايات وتمرد كثير من أمراء الملغول عليه وهرب بعضهم الى خارج فارس ، وكان من هؤلاء طائفة الأويراتية التى كان يقيم معظم أفرادها فى بغداد وديار بكر ، فجاءت الى مصر وكان عددها يزيد على عشرة آلاف نفس والمقدم عليهم طرغاي • وقد استقبلهم السلطان كتبغا بترحاب كبير نظرا لأصله

(٢١) ابن حنبل : الجوهر الثمين ص ٣١٨ — ٣١٩ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المملوكى ص ١٣٩ ، د. الباز العيى : المماليك ص ٦٥ ، د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٧ — ١٨ •

المغولى ، وكان يطمع فى اتخاذهم سندا له فى الحكم ، هذا فضلا عن علاقات الممالك السيئة فى ذلك الوقت مع مغول فارس فلم ينس المسلمون ما فعله المغول من تدمير وتخريب ونهب للبلاد الاسلامية فضلا عن قتل الخليفة العباسى وأفراد أسرته • غير أن طائفة الأويرات ولم تكن على دين الاسلام أثارت بسلوكها باقى الأمراء واضطر كتبغا الى طرد عدد كبير منهم الى ساحل الشام ومنطقة المرج فى دمشق • وقد كان هؤلاء الأويرات ومحابة كتبغا لهم سببا فى طرده من السلطة واخراجه من مصر (٣٢) •

وكانت جهود كتبغا فى دفع العناصر المغولية لاسيما الأويراتية الى الأمام فى محاولة للسيطرة على الجيش المملوكى قد باءت بالفشل ، كما أن محاولاته اضعاف شأن الجراكسة زادتهم تماسكا واصرارا على الانتقام من الترك فى شخص كتبغا بعد أن أيده هؤلاء • ولسوء حظ كتبغا جاء حكمه مصحوبا بانخفاض فى النيل وحدوث مجاعة ووباء فى مصر فكره الناس حكمه وتشاءوا • وهكذا تجمع العداء حول كتبغا من كل الأطراف ، وتمكن الأمير حسام الدين لاجين من قتل الأمير بتخاص العادلى والأمير بكتوت الأزرق وكانا جناحى كتبغا ، فلما سمع كتبغا ذلك وكان قادما من الشام الى مصر هرب الى دمشق فى عدد قليل من خواصه • وسيطر لاجين على الأمور وأعلن نفسه سلطانا فى المحرم من سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م فى حين نفى كتبغا الى صرخد ، كما أبعد الناصر محمد بن قلاوون الى الكرك (٣٣) •

(٢٢) انظر مقال الواسدية فى الجيش المملوكى •

(٢٣) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٠٦ — ٨١١ ، ٨١٣ ، ٨١٨ — ٨٢٠ ، ٨٢٦ ، ٨٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٥٧ — ٦٤ — ٦٧ ، ٦٨ ، ابن قمقاز الجواهر الثمين ص ٣٢١ — ٣٢٣ ، ابو الفداء : مصدر سابق د ٤ ص ٣١ — ٣٢ ، ابن الفرات ح ٨ ص ١٩٣ ،

ولم يتغير موقف الجراكسة من الترك الذين تصدر زعامتهم حسام الدين لاجين^(٢٤) ، فاستمرت الاضطرابات السياسية ، فضلا عن المجاعات المتوالية وفساد العملة^(٢٥) ثم ان السلطان لاجين أخطأ عندما قدم مملوكه منكوتر على سائر الأمراء وعينه نائبا للسلطنة رغم كراهيتهم له واشترطهم على لاجين ألا يقدم مماليكه عليهم^(٢٦) . وزادت كراهية الأمراء المماليك للسلطان لاجين ونائبه منكوتر بسببه قيامهما برك البلاد واعادة توزيع الاقطاعات من جديد ، فوقع التذمر في صفوف الأمراء والجند بعد أن قل نصيبهم من أرض مصر . هذا فضلا عن العداء القديم بين السلطان لاجين والمماليك

٢٢٠ — ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ابن حجر : الدرر د ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ ، الصفدي : الوافي د ٤ ص ٣٥٦ ، ابن ابيك : الدرة الزكية ص ٣٦٣ — ٣٦٥ ، ٣٦٦ — ٣٦٧ ، ابن كثير : د ١٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ، ابن اياس : د ١ ق ١ ص ٣٩١ ، ابن تغري بردي : الطليق الشافي د ٢ ص ٥٥٣ — ٥٥٤ ، وانظر ايضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ١٠٦ — ١٠٩ ، د. حكيم امين : مرجع سابق ص ١٨ — ١٩ .

(٢٤) انظر حكيم ص ١٨ هامش ٥ .

(٢٥) المقرئى : اغائة الامة ص ٣١ — ٣٦ ، ابن اياس : مصدر

سابق د ١ ق ١ ص ٣٩٧ ،

William F. Tucker, Natural disasters and the Peasantry in Mamluk Egypt, in « JESHO » vol. XXIV, 1981 p. 218.

(٢٦) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٢١ — ٨٢٢ ، ابن تغري بردي : النجوم د ٨ ص ٨٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ابن الفرات د ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٢ ، أبو الفداء : د ٤ ص ٣٧ ، ابن اياس : د ١ ق ١ ص ٣٩٦ .

الأشرافية بسبب تناوطه على قتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل (٢٧) .
وقد شعر منكوتر بما يجبره الأمراء في الخفاء فبادر هو بالتخلص
منهم ، وأشار على السلطان بإرسال حملة إلى بلاد الأرمن لابتعاد
كبار الأمراء عن مصر والشام ، كما حرص السلطان للقبض على البعض
الآخر (٢٨) وهكذا تجمع العداء حول لاجين الذي نسي مادرج عليه
الأمراء من الفتك بسلاطينهم متى لاحت الفرصة لهم أو استوجب
الأمر ذلك — ومن الأمور الغريبة في سلوك السلطان لاجين تعيينه
كرجي مقدم الممالك الجراكسة قائدا ضمن حرسه الخاص مع علمه
بطموح الجراكسة للوصول إلى الحكم من ناحية ، والعداء الذي كان
مستحكما بين كرجي ومنكوتر من ناحية أخرى . ويبدو أن السلطان
لاجين قد شعر بعد فوات الأوان ببوادر الانقلاب عليه فاحتز على
نفسه ، وقال من الركوب ، ولزم قلعة الجبل خائفا (٢٩) .

ولأن احتياطات الأمن التي اتخذها لاجين جاءت متأخرة ، فلم
ينفعه الحذر من نفاذ القدر ، فاتفق الممالك الأشرافية بزعامة طنجي
مع الممالك الجراكسة بزعامة كرجي ، واجتمعوا في دهليز القصر
الكبير ، وزاد من فرص نجاح المؤامرة أن الأمير كرجي اتفق مع الأمير

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٩٢ — ٩٥ ، ابن دقماق :
مصدر سابق ص ٣٢٤ ، المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٤١ —
٨٤٦ ، ابن إياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ ،
وانظر شرح د. سعيد عاشور للروك الناصرى في الجوهر الثمين.
ص ٣٢٤ حاشية رقم ٢ .

(٢٨) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٣٣ — ٨٣٥ ، ٨٥٢ —
٨٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٩٨ — ١٠١ ، ابن
إياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ . وانظر أيضا :
الصقاعى : تالى كتاب وفیات الاعيان ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن كثير
د ١٤ ص ٢ .

(٢٩) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ١٠٠ .

نوغيه الكرمونى سلاح دار السلطان ، وكان الاثنان فى نوبة حراسة السلطان لاجين فتمكنا من قتله وقتل نائبه منكوتر فى ليلة العاشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٨٩ هـ / ١٢٩٩ م . ثم تطورت الأمور الى الأسوأ عندما وقعت الحرب بين الجراكسة ومقدمهم كرجى وبين باقى عناصر الجيش المملوكى . فالأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح كان مجردا الى سيس لفتحها ثم عاد الى القاهرة فى اليوم التالى لمقتل السلطان لاجين ، فتلقاه طغجى بصفته نائبا للسلطة ، فأنكر بكتاش على طغجى قتل السلطان حسام الدين لاجين ، ثم هجمت مماليك بكتاش على طغجى فمزقته . ولما علم كرجى وهو فى قلعة الجبل بما حدث ألبس مماليكه السلاح وركب فى ألفى فارس ، فاحتشد جميع الأمراء والمقدمين وأجناد الحلقة وانضموا لبكتاش وحملوا على الجراكسة وهزموهم . وقتل فى المعارك كرجى ونوغيه الكرمونى وبعض خواصهما . ثم سكنت الفتنة ، وتم الاتفاق بين الأمراء على عودة الناصر بن قلاوون من جديد الى عرش السلطنة (٣٠) .

وهكذا فشل الجراكسة فى انقلابهم ضد السلطان حسام الدين لاجين ولم يصلوا الى الحكم ، واضطروا بعد قتل زعيمهم كرجى وشركائه طغجى ونوغيه وغيرهم ، وهزيمتهم على يد قوات بدر الدين

(٣٠) ابن أيبك د ٨ ص ٣٧٦ — ٣٨٢ ، المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٥٦ — ٨٦٠ ، ٨٦٩ — ٨٦٩ ، ابن حجر : الدرر د ٢ برقم ١٣٠٢ ص ١٤ — ١٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ١٠١ — ١٠٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٢٥ — ٣٢٩ ، ابن حبيب : تذكرة النبیه تحقيق د. محمد محمد أمين ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى : الدليل الشافى د ٢ ص ٥٥٦ ، ابن كثير : د ١٤ ص ٣ ، حواش سنة ٦٩٨ هـ الصقاعى : تالى كتاب وفيات الأعيان تحقيق جاكين سويليه ص ٥٦ — ٥٧ رقم ٨٦ ، وانظر ايضا المراجع الآتية : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٠٩ — ١١١ ، د. حكيم أمين مرجع سابق ص ١٨ — ١٩ ،

بكتاش ومن معه من الترك ، اضطروا الى قبول الأمر الواقع وأن يتظاهروا بحماية الشرعية المتمثلة فى بيت قلاوون وشخص السلطان الناصر محمد بن قلاوون ريثما تحين الفرصة من جديد ، وكان كرجى قد ادعى بعد أن قتل السلطان لاجين أنه أخذ بثأر أستاذهم الملك الأشرف (٣١) .

وبرز فى تلك الفترة الأمير بيبرس الجاشنكير زعيما للجراكسة فى مواجهة الأمير سلار نائب السلطنة الذى يؤيده المماليك الترك من الصالحية والمنصورية . أما باقى عناصر الجيش المملوكى فكان أبرزها فى ذلك الوقت بقايا الأويراتية من المغول . وقد أرادت هذه الطائفة أن تستفيد من تهديدات أقربائهم مغول فارس لدولة المماليك ، فعندما اشتدت تهديدات غازان بالزحف على بلاد الشام خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م على رأس قواته ، وعند غزوة أقبل الأمراء على الصيد والنزهة ، فأراد الأويراتية استغلال هذه الفرصة وعزموا على إثارة الفتنة انتقاما لقتل أمرائهم فى أيام المنصور لاجين ، ولخلع كتبغا وإخراجه الى صرخد ، وللخلاص من استياد الجراكسة بالأمور فى البلاد . وعين هؤلاء الأويراتية الأمير علاء الدين قطلوبرس كبيرا لهم ، واتفقوا على قتل بيبرس وسلار والناصر محمد بن قلاوون وإعادة كتبغا الى الحكم ، غير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على زعماء الأويراتية حيث شنق منهم نحو الخمسين . وقد أدت هذه الأحداث الى اتساع الهوة بين القبجاق الترك وبين الجراكسة ، وبين هاتين الطائفتين والسلطان الناصر محمد.

(٣١) القرىزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٦٦ — والمعروف أن لاجين هو الذى قتل الأشرف خليل ، وانظر أيضا د. سعيد عاشور : العصر المملوكى ص ١١١ .

لأن كل طائفة اعتقدت أن السلطان الناصر كان متفقا معها ضد الأخرى (٣٢) .

وبدأ بييرس الجاشنكير يدفع ممالিকে الجراكسة الى الصفوف الأولى والاستعانة بهم في تدعيم نفوذه ، فتولى أحدهم منصب والى القاهرة سنة ٧٠١هـ / ١٣٢١م وهو الأمير بييرس التاجي ، كما عين الأمير عز الدين أيّيك البغدادى وهو من الجراكسة أيضا فى منصب الوزارة . وهكذا قويت شوكة الجراكسة فى مصر ، وصارت لهم الحماية الكبيرة . وكان طبيعيا أن يدب الحسد فى قلوب عناصر الجيش المملوكى الأخرى لاسيما الترك بزعامة سلار ، فصار بييرس اذا أمر أحدا من ممالিকে الجراكسة وقف أصحاب سلار له وطلبوا أن يؤمر واحدا منهم (٣٣) . وساعد على ازدياد نفوذ الجراكسة فى تلك الفترة ظهورهم بمظهر حماة بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص ، وهو الأمر الذى كان مرغوبا فيه من مختلف الطوائف فى مصر نظرا لأنه كان يمثل الشرعية فى الحكم والاستقرار السياسى . هذا بالاضافة الى أن الجراكسة قاموا بدور كبير فى حماية مصر والشام من هجمات غازان خان المغول بعد أن انتصر عليه المماليك فى معركة شقشب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م . وكان لبييرس الجاشنكير والجراكسة دور كبير فى هذا الانتصار (٣٤) .

(٣٢) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٥ ، ابن أيّيك : كنز الدرر د ٩ الدر الفلخر ص ١٥ ، د. حكيم : مرجع سابق ص ٢٠ .

(٣٣) المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٨٧٢ — ٨٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ١٤٠ — ١٤١ ، وانظر أيضا : د. حكيم أمين : مرجع سابق ص ٢١ ، د. الباز العرينى : مرجع سابق ص ٦٥ .

(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ١٥٩ — ١٦٣ ، المقرئى : السلوك د ١ ق ٣ ص ٩٣٠ — ٩٣٩ . وانظر أيضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٤٠ — ١٤١ .

ثم انفجر الخلاف بين الجراكسة والترك القبجاق في سنة ٥٧٠٦ هـ / ١٣٠٧ م عندما أهان بيبرس الأمير سيف الدين الطشلاقي وأصر على اخراجه من مصر الى الشام • وكان الطشلاقي من الزام الأمير سلار النائب وخشداشه • وازدادت الوحشه بين الأميرين الكبيرين (بيبرس وسلار) أيضا بسبب مناصرة كل منهما لبعض موظفي الدولة ، فالأمير بيبرس أيد كاتبه التاج بن سعيد الدونة الذي تغلغل نفوذه في أمور الأموال الديوانية المتعلقة بالوزارة والاستدارية، في حين ناصر الأمير سلار صديقه الأمير علم الدين سنجر الجاولي الذي اتهمه بيبرس بالاستيلاء على أموال السلطان • ولما اشتد الخلاف توقف بيبرس عن الركوب مع سلار وصار كل منهما يركب مع حاشيته • وتوقع الناس الفتنة ، واستعد الطوفان للحرب حتى تدخل باقي الأمراء ، وانتهى الأمر بتسوية في صالح الجراكسة بعد أن تم اخراج الجاولي أميرا بطلا الى الشام (٣٤) •

وهكذا زاد نفوذ الجراكسة بزعامه بيبرس الجاشنكير في الوقت الذي تضاعف فيه نفوذ السلطان الناصر محمد بن قلاوون ووقع فريسة الخلاف بين الأميرين الكبيرين بيبرس وسلار • ثم أصبح ميزان القوى يميل لصالح بيبرس والجراكسة بعد أن صار معظم الأمراء منهم بالقياس الى طوائف الترك البحرية • وهم سلار بالفرار الى اليمن والامتناع بها الا أن بيبرس الجاشنكير فطن الى ذلك ودس له من ثنى عزمه عن الهرب (٣٥) وفي ظل هذه الظروف لم يسع السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد أن عجز عن فرض رأيه أو مباشرة مسؤولياته ، لم يسعه الا الهرب من مصر والاحتماء في حصن الكرك

(٣٥) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٢٢ — ٢٦ •

(٣٦) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٣٧ — ٣٨ •

بعد أن أدرك أن عرش السلطنة مهياً لاستقبال بييرس الجاشنكير زعيم الجراكسة (٣٧) .

وصح ماتوقه الناصر محمد بن قلاوون ، فعندما وصل خطابه الى مصر الذى أعلن فيه تنازله عن عرش السلطنة اجتمع الأمراء وتشاوروا فى الأمر ثم انقسموا الى حزبين (٣٨) : أحدهما يؤيد سلار وهو الحزب الذى يتكون أساساً من الترك . أما الحزب الثانى فقد تكون من الجراكسة وأيد بييرس الجاشنكير . وكادت الفتنة أن تقع بين الفريقين لولا رجاحة عقل سلار الذى أدرك بثاقب بصره أن امر لن يدوم طويلاً للجراكسة وبييرس مادام الناصر صاحب الحق الشرعى على قيد الحياة ويتمتع بولاء مماليكه وممالك أبيه . ثم حسم سلار الموقف عندما أعلن أنه لا يصلح للسلطنة ، وأن الجدير بها هو بييرس الجاشنكير ، فأسرع الجراكسة وقالوا بأجمعهم « صدق الأمير ، وأخذوا بيد بييرس وأقاموه كرها » (٣٩) ذ

(٣٧) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٤ — ٤٥ . وقد قاتل الناصر
عندما وصل الى الكرك « قد أخذ بييرس الجاشنكير السلطنة ولا بد » .
وانظر : ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ٢٣٢ وما بعدها ، الصندى :
الوافى بالوفيات ج ٤ ص ٣٦٥ ، الصقاعى : مصدر سابق ص ٥٧ —
٥٨ ترجمة رقم ٨٧ .

(٣٨) فى رأى ابن أبيك أن هذا الخطاب كان مزوراً ولم يرسله
الناصر . انظر ابن أبيك : كنز الدرر ج ٩ ص ١٥٩ .

(٣٩) عبر ابن تغرى بردى عن دهاء سلار بقوله « لعب الأمير
سيف الدين سلار بالجاشنكير هذا ، وحسن له السلطنة حتى تسلطن »
انظر : المنهل الصافى ج ٣ ص ٤٦٧ — ٤٧٣ . وانظر المصادر
والمراجع الاتية :

المقريزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن تغرى بردى :

=

وشرع بييرس الجاشنكير فى تثبيت أركان سلطنته ، وأدرك أنه فى ظل ظروفه الصعبة لابد من استرضاء سلاّر زعيم الترك ، فعينه نائباً للسلطنة على الرغم من تردد سلاّر وامتناعه . والواقع أن سلاّر الذى وصفه المؤرخون بالتعقل والتؤدة قد بدا سياسياً واسع الحيلة فى امتناعه فى بادئ الأمر عن قبوله منصب نائب السلطنة ، فقد أدى ذلك الى ازدياد تعلق الترك به حتى قام عليه الأمراء ليقبل المنصب ، كما أن بييرس الجاشنكير اطمأن له على الرغم من سابق العداء بينهما ، وبدلاً من الفتك به قال بييرس :

« ان لم تكن أنت نائباً فلا أعمل أنا السلطنة أبداً » (٤٠) . وهكذا تم لبييرس الجاشنكير اعتلاء عرش سلطنة المماليك فى مصر ، وهو أول السلاطين الجراكسة . ويبدو أن رفض سلاّر لمنصب السلطنة قام على أساس أنه من الوافدية ، وكانت عصبيتها قليلة وضعيفة فى الجيش المملوكى ، كما أن فشل كتبغا فى الاحتفاظ بالسلطنة كان لايزال ماثلاً أمامه . أما الجراكسة فلم يعجبهم بقاء سلاّر فى نيابة السلطنة ، وعنفوا بييرس الجاشنكير عندما اختلت أحوال الدولة ، وذكروا له أن السبب فى ذلك الخلل إنما يرجع الى بقاء سلاّر النائب ، وأن جميع الفساد صادر منه ، فانه لما فاته السلطنة وقام بها بييرس حسده سلاّر ودبر عليه فى الوقت الذى كان بييرس فى غفلة (٤١) .

النجوم د ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٣٧ — ٣٣٨ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٢٢ ، د. سعيد عاشور : العصر المملوكى ص ١٤١ — ١٤٣ ، د. حكيم امين : مرجع سابق ص ٢٣ .

(٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٤٦ .

(٤١) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٧٠ .

ولم تكن فترة سلطنة بيبرس الجاشنكير سهلة أو موفقة في كل أمورها ، فقد تردد أمراء الشام في الاعتراف به سلطانا ، وقال أحد أمراء دمشق وهو الأمير سيف الدين بهادر وهو من الترك « هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا لنعمل شيئا قبل أن يعملوا بنا » (٤٢) . ورفض الأمير جمال الدين أقوش الأفرم مع كونه جركسيا أن يحلف لبيبرس قبل الرجوع الى الناصر محمد بن قلاوون في الكرك (٤٣) . ويبدو أن الأفرم وكان يشغل وظيفة النيابة في دمشق قد شك في امكانية نجاح الجراكسة في تلك الفترة في الوصول الى منصب السلطنة والاحتفاظ بها ، هذا بالإضافة الى ماكان بين الأميرين بيبرس جاشنكير وجمال الدين أقوش من تنافس ، وكان الأقوش يرى في نفسه أحقية في شغل وظيفة السلطنة لأنه أقدم في الخدمة من بيبرس (٤٤) . ومهما كان الأمر فإن الأفرم في النهاية وجد أن بيبرس أحب اليه من سلا ، ولابد من مبايعة بيبرس تدعيما لموقف الجراكسة ، فأظهر فرحه وسروره بسلطنة بيبرس اذ كان الاثنان بين الأتراك كالأغرباء (٤٥) . ولم يكتف الأفرم بذلك التأييد الذي منحه لبيبرس ، بل أخذ يقنع باقي الأمراء المعارضين في الشام سواء من الترك أو الجراكسة كي يحلفوا للسلطان

(٤٢) ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٤٣٧ ،

D. Ayalon, The Circassians., p. 138 .

(٤٣) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٤٧ .

(٤٤) ذكر الصفدى أن سبب تردد الأفرم في تأييد بيبرس هو ماكان بينهما من تنافس اذ كان الأفرم أقدم في الخدمة من الجاشنكير وكان يقول عنه « والله هذا بيبرس لما كنا في البرج كان يخدمنى وكان يحك لى رجلي في الحمام ويصب على الماء ، واذا رآنى والله مايقعد الا اذا قلت له أقعد » . انظر : الصفدى : الوافى د ٩ ص ٢٢٩ .

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٣٦ ،

D. Ayalon, The Circassians., p. 138.

بيبرس • وكان هما قاله لهم في هذا الشأن « اعلّموا أن هذا أمر قد انقضى ، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال ، وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر كان هو السلطان ولو كان عبدا حبشيا ، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر • وربما يبلغ هذا اليه فيتغير قلبه عليكم » (٤٦) •

واستمر الأفرم في اقناع باقى أمراء دمشق حتى حلفوا له. وللسلطان بيبرس الجاشنكير • أما باقى أمراء الشام مثل الأمير قرا سنقر نائب حلب ، والأمير استدر نائب طرابلس ، والأمير قبحق نائب حماء فقد رفضوا متابعة الأفرم في تأييد بيبرس الجاشنكير وأعلنوا رفضهم صراحة ، ثم اتفق الثلاثة على تأييد الناصر محمد قلاوون المقيم في الكرك (٤٧) • وفي القاهرة حاول السلطان بيبرس الجاشنكير استرضاء خصومه وأتباعه على السواء ، فخلع يوم تقلده السلطنة على عدد كبير من الأمراء والمباشرين حتى قيل بأن عدد الخلع بلغ نحو ألف وثلاثمائة (٤٨) ، كما رفع بعض الأمراء الجراكسة الى وظائف أعلى ، وأمر عددا كبيرا منهم ، وأراد أن يؤمر هماليك الأمير سلاسل فلم يوافق الأخير على ذلك (٤٩) •

ورغم الجهود التي بذلها بيبرس لاسترضاء الجيش المملوكي فإنه لم ينجح في الحصول على تأييد كافة عناصر الجيش في مصر الذي

(٤٦) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٣٧ •

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ •

(٤٨) ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٢٤ ، وفي رأى ابن تغرى بردى أن عدد الخلع بلغ في أثناء حكم بيبرس الفين ومائتى خلعة • المنهل د ٣ ص ٤٦٩ رقم ٧١٨ •

(٤٩) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٣ ، وانظر ابن ابيك : كثر الدرر د ٩ ص ١٨٠ •

انقسم آنذاك الى فريقين : فريق مع الناصر محمد بن قلاوون باعتباره السلطان الشرعى ، فريق مع بييرس الجاشنكير . وكانت الأكثرية مع الناصر ، وهنا لم يجد بييرس بدا من ابعاد أعداد كبيرة من ممالك الناصر بعد أن بلغه مكاتبة جماعة منهم له فى الكرك ، فقبض عليهم وأرسلهم الى سجن الاسكندرية ، كما نفى حوالى ثلاثمائة آخرين الى قوص ، وعندئذ نفرت القلوب عن بييرس سواء من الترك أو العوام فى مصر (٥٠) . ومن سوء حظ بييرس أن فشت فى الناس فى فترة حكمه أمراض حادة ، وعم الوباء فى مصر كما توقف النيل عن الزيادة ، وارتفعت أسعار الحبوب ، فتشاعم الناس منه ومن حكمه ، وتمنوا زواله ، وقد ردد العمامة فى مصر آنذاك أغاني شعبية تتهم فيها على المظفر بييرس وحكمه (٥١) .

واستغلت الممالك الجراكسة مافيه بييرس من اضطراب وقلق ، وسعى كل واحد من خشداشيته كى يترقى الى أعلى منزلة ، كما طلبت الجراكسة من بييرس أن يقضى على سلار وأن ينادر بالقبض عليه قبل فوات الأوان ، واتهموا سلار بمباطنة الناصر محمد فى

(٥٠) ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٥١) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٥ ، ابن اياس د ١ ق ١ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

ومن هذه الاغاني :

سلطاننا ركين ، ونائبنا حقين ، يجينا لما منين ، جيوا لنا الاعرج ،
يجى لما ويخرج .

وقد ذكر ابن اياس أن الامير سلار النائب كان اجرودا به بعض شعيرات فسمته العوام « حقين » تصغير حقن . وكان الملك الناصر محمد به عرج فسمته العوام الاعرج . أما بييرس الجاشنكير فكان لقبه ركن الدين ، فسمته العوام « ركين » بتصغير ركن .

انظر أيضا : ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

الكرك (٥٢) . وفى الوقت الذى كان بيبرس مشغولا بالعمل على استقرار الأمور فى مصر كان الموقف فى بلاد الشام — باستثناء دمشق — قد اتجه اتجاهها آخر فى صالح الناصر محمد ، فالأمراء الثلاثة : قرا سنقر ، وقبجق ، واستدهر أرسلوا الرسائل الى الناصر محمد فى الكرك حملها اليه الأمير محمد بن قرا سنقر . وفحوى رسائلهم أنهم يلومون الناصر لتنازله عن عرشه ، وأنهم لم يحلفوا للمظفر بيبرس ، مع الوعد بالعمل على ارجاع الناصر الى الحكم مرة أخرى . وبطبيعة الأمر فقد سر الناصر بذلك كثيرا واستقبل ابن قرا سنقر بترحاب كبير ، ورد على الأمراء الثلاثة طالبا منهم استمرار المراسلات معه ، وفى نفس الوقت مراوغة بيبرس حتى تحين الفرصة للانقضاض عليه (٥٣) .

وشعر بيبرس بخطورة هؤلاء الأمراء الثلاثة عليه وما يمكن أن يدبروه له سواء فى الخفاء أو العلن ، فعمل على سرعة استرضائهم ، فأطلق حماته لنائبها سيف الدين قبجق يولى ويعزل فيها كيفما شاء (٥٤) . أما قرا سنقر فقد منحه بيبرس تقليدا بنىابة حلب وبلادها « دربست » ، كما أرسل اليه خطابا يترفق له فيه قائلا : « أنت خشداشى ، ولو علمت أن هذا الأمر يصعب عليك ماعملت شيئا حتى أرسلت اليك وأعلمتك به لأن مافى المنصورية أحد أكبر منك . غير أنه لما نزل ابن أستاذنا عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس وقالوا مالنا سلطان الا أنت . وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان ، فلو لم أتقدم أنا كن غيرى يتقدم . وقد وقع ذلك فاجعلنى

(٥٢) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

المقريزى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٧٠ .

(٥٣) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٠ — ٢٤٢ .

(٥٤) المقريزى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٠ .

واحدا منكم ودبرنى برأيك ، وهذه حلب وبالأدها « دربست » لك ، وكذا لخشداشيتك الأمير قبجق والأمير استدمر » • وقد أرسل بييرس أيضا لكل من هؤلاء الثلاثة خلعة بألف دينار وفرشا وقماشاً بألف أخرى ، وعشرة رؤوس من الخيل ، فحلف الأمراء الثلاثة للسلطان بييرس الذى فرح عند سماعه النبأ وقال : « الآن تم لى الملك » (٥٥) •

واعتقد بييرس أنه قد رتب كل شيء واستمال الخصوم ولم يبق الا تصفية الحساب مع الناصر محمد بن قلاوون والانقلاب على البيت الذى رباه • لقد كانت العادة أن يحمى السلطان ممالكه ، ولكن الوضع فى دولة المماليك آنذاك ، كان معكوسا ، فمماليك أسرة قلاوون كان عليهم حماية سلطانهم • وقرر بييرس التخلص من ذلك الوضع وأن يعمل لحسابه الخاص ولحساب جماعته الجراكسة • واستغل بييرس ما أشيع عن حركة خربندا خان مغول فارس للسير الى بلاد الشام ، وكتب الى الناصر بحركة خربندا ، وأن الحاجة الى المال قائمة ، وطالبه بأن يرسل الى مصر ما أخذه من أموالها وما استولى عليه من حاصل الكرك ، ومن عنده من المماليك ، ولا يدع عنده سوى عشرة برسم الخدمة ، وأن يرسل الخيول التى قادها من مصر • وختم بييرس رسالته بالتهديد بارسال الجيش الى حصن الكرك لتخريبه (٥٦) •

ورأى الناصر أن موقف بييرس لا يزال هو الأقوى ، فقرر

(٥٥) وكان الناصر محمد قد أرسل الى قرا سنقر يقول له فى رسالة أخرى « وان حضر اليك أحد من جهة المظفر وطلب منك البمين له فقدم النية انك مجبور ومغصوب واحلف » • انظر : ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ وانظر أيضا : د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١١٥ •

(٥٦) القرىزى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٢ ، ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٤٦٩ •

المخالطة فى الجواب ريثما تتحسن الظروف • وكتب الناصر الى بيبرس خطابا ترقق فيه وأظهر الخضوع والاستعطاف حتى وصف نفسه بالملوك مع أن الرق لم يمسه قط • ومما جاء فى خطاب الناصر فى هذا الشأن : « المملوك محمد بن قلاوون يقبل الأرض وينهى أنه ما قصد الإقامة الا طلبا للسلامة ، وان مولانا السلطان الذى هو ربانى وما أعرف لى والدا غيره • وكل ما أنا فيه فممنه وعلى يديه ، والقدر الذى أخذته من الكرك لأجل ما لابد لى فيه من الكلف والنفقة • وقد امتثلت المرسوم الشريف وأرسلت نصف المبلغ الذى تأخر عندى امتثالا لأمر مولانا السلطان • وأما الخيل فقد مات بعضها ولم يبق الا ما اركبه • أما الممالك فلم أترك عندى الا من اختار أن يقيم معى ممن هو مقطوع العلائق من الأهل والولد ، فكيف يحل لى أن أخرجهم ، وما بقى الا احسان مولانا السلطان » • وخلع الناصر على رسول بيبرس وأرسل معه مائتى ألف درهم (٥٧) •

ولم يقتنع بيبرس بما جاء فى رسالة الناصر محمد والأموال التى أرسلها ، وأصر على تجريده من أى قوة قد تساعد فى العودة الى الحكم • وزين الجراكسة لبيبرس هذا العمل وحسنوا له القبض على الناصر ، فأرسل بيبرس رسوله الأمير مغلطاي الى الكرك مكررا طلبه بضرورة ارسال الممالك الموجودين عنده ، وأن يكف عن مكاتبة أمراء مصر ، وهدده بنقله من الكرك الى القسطنطينية كما فعل الأشرف خليل مع أولاد السلطان الظاهر بيبرس • وخاطب مغلطاي الناصر محمد بخشونة وأغلظ عليه القول ، فاشتد حنق الناصر وعاقب مغلطاي بالحبس ثم رده مقهورا • وأسرع الناصر بمكاتبة الأمراء المواليين له فى الشام ومصر ممن يثق فيهم ، واستعطفهم قائلا : « أنتم ممالك

أبى وريثموني ، فلما أن تردوه عنى والا أسير الى بلاد التتار « (٥٨) .
وعندما علم المظفر بيبرس بما جرى لرسوله مغلطاي من اهانة اشتد
قلقه وشرع فى تجريد قواته لارسالها الى الكرك « (٥٩) .

وأسرع نواب الشام الموالون للناصر وفى مقدمتهم الأمير
قرا سنقر باعلان تأييدهم للناصر ، وكتب له قرا سنقر قائلا : « بأنى
مملوك السلطان فى كل مايرسم به » (٦٠) . أما الأمير الأقرم نائب
دمشق فقد رفض تأييد الناصر بحجة أنه سبق أن تنازل عن
العرش (٦١) ، وأرسل اليه يقول : « ان كان العسكر المصرى معك فنحن
أيضا فى خدمتك ، والا فلا طاقة لنا بالمصريين ، ولا نرى سفك
دماء الاسلام ، ونحن تبع للمصريين والسلام » وشدد الأقرم من
قبضته على بلاد الشام ، وأمر بالناداة فى سكان دمشق « سلطانكم
المظفر ، ومن تكلم قيما لا يعنيه شئ » (٦٢) .

وفى تلك الظروف الصعبة التى يواجهها بيبرس شاء سوء حظه
أن يواجه مؤامرة لاغتياله قادها الأمير سيف الدين نوغاي بعد أن
باطن سلاى النائب وكان من الزامه . ومع أن المؤامرة قد فشلت الا

(٥٨) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٦ ، ابن تغرى بردى :
النجوم د ٨ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ المنهل د ٣ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، ابن اياس :
مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ وأنظر أيضا : د. سعيد عاشور :
العصر المالىكى ص ١١٦ .

(٥٩) ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

(٦٠) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٥ ، المقرئى : السلوك
د ٢ ق ١ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٦ ، المقرئى : السلوك
د ٢ ق ١ ص ٥٧ — ٥٨ ، ابن ابيك : كنز الدرر د ٩ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٦٢) ابن ابيك : كنز الدرر د ٩ ص ١٦٩ — ١٧٠ سنة ٧٠٩ هـ .

أنها انتهت بهروب نوغاي ومماليكه ومؤيديه بقصد اللحاق بالناصر محمد بن قلاوون فى الكرك (٦٣) . وفشلت الحملة التى أرسلها بييرس خلفهم لاعادتهم ، بل على العكس من ذلك أخذ باقى الأمراء والمماليك السلطانية فى الانسحاب من مصر والتوجه الى الكرك لخدمة الناصر محمد (٦٤) .

وزادت الاضطرابات فى مصر بنشوب حرب بين مماليك السلطان بييرس الجاشنكير من جانب ، والمماليك المنصورية والأشرفية والأويراتية الذين قرروا تأييد الناصر محمد من جانب آخر . وقد عظم الخطب على السلطان بييرس واجتمع اليه الجراكسة وحرصوه على الأمير سائر نائب السلطنة فى مصر بحجة أنه مصدر الفساد كنه ، ولكن بييرس رفض طلبهم تجنباً للمزيد من الفتن والاضطرابات (٦٥) . وزاد من سوء موقف بييرس فشل الحملة الثانية التى جردها للتوجه الى الكرك بسبب هروب معظم الأمراء ومماليكهم الى الناصر . كما لم تجد البيعة الجديدة التى عقدها الخليفة العباسى للسلطان المظفر بييرس فى اقناع الأمراء ومماليكهم بالوقوف ضد الناصر محمد (٦٦) .

ولجأ بييرس من جديد الى أسلوب تهديد الناصر محمد ،

(٦٣) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ ، المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٩ — ٦٠ — وأنظر د. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١١٧ .

(٦٤) ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٣٨ .

(٦٥) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٦١ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٦٦) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٦١ — ٢٦٣ ، المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٦١ — ٦٢ ، وأنظر د. عاشور : العصر المماليكى ص ١١٧ .

فأرسل إليه خطابا شديدا للهجة جاء فيه : « ان ساعة وقوفك على هذا الكتاب وقبل وضعه من يدك ترسل لنا نوغاي ومغلطاي ومماليكهما ، وتبعث المماليك الذين عندك ولا تخل منهم عندك سوى خمسين مملوكا ، فانك اشتريت الكل من بيت المال ، وان لم تسيرهم سرت اليك وأخذت وأنفك راغم » (٦٧) غير أن الناصر لم يهتز من هذا الخطاب بل استمر في اظهار مابه من ضعف وولاء للسلطان المظفر بيبرس (٦٨) وفي نفس الوقت أخذ يجهز قواته للتوجه الى دمشق . وبالفعل نجح الناصر محمد في دخول دمشق واعادة الخطبة له يوم الجمعة الموافق الثاني والعشرين من شعبان سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ م ودخل في طاعته نائبها الأمير الأفرم بعد أن كان قد هرب ثم حصل على أمانته من الناصر محمد (٦٩) .

وعندما وصلت الأخبار الى المظفر بيبرس في القاهرة بنجاح الناصر في دخول دمشق دون مقاومة وتأيد كافة أمراء الشام له ، أدرك عندئذ المظفر انتهاء دولته ، وفكر في الوسيلة التي ينجو بها بنفسه ، وبوجه خاص بعد أن تخلى عنه خواصه من الأمراء مثل الأمير برلغى زوج ابنته ، ولم يعد باقيا معه سوى عدد قليل من الجراكسة الذين أشاروا على بيبرس بضرورة التخلص من سلار يصفته زعيم الترك ونائب السلطنة . غير أن بيبرس لم يجد مقرا من الاستسلام فأرسل الى الناصر كتابا يستعطفه فيه قائلا : « والذي أعرفك بأني قد رجعت أقلدك بغيك ، فان حبستني عدت ذلك خلوة ،

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٥٤ .

(٦٨) ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٦٩) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٦٧ — ٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٨ ص ٢٦٤ — ٢٦٨ ، ابن أبيك : كز الدرر د ٩ ص ١٧٢ — ١٧٤ ، ابن اياس : مصدر سائق د ١ ق ١ ص ٤٢٨ .

وان نفيتنى عدت ذلك سياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة »
 وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة فى الكرك أو صهيون أو حماة •
 ثم استولى بيبرس على مافى الخزائن من أموال وخيول وأشهد على
 نفسه بالخلع من السلطنة وهرب فى سبعمائة مملوك من أنصاره ،
 وجماهير العامة فى القاهرة تشييعه بالسباب والشتائم • وقد فكر
 بيبرس فى الهرب الى اليمن عن طريق عيذاب والحجاز ، واتخاذ اليمن
 قاعدة له ، غير أن مشروعه فشل (٧٠) وفى يوم الجمعة ١٩ من رمضان
 سنة ٥٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ م خطب من جديد على منابر القاهرة للناصر محمد
 وأسقط اسم المظفر وزال ملكه وانتهى أمره الى القتل بين يدى الناصر
 الذى عاد الى تولى سلطنة مصر والشام للمرة الثالثة • وبذلك تم
 انتصار الترك على الجراكسة فى هذه الجولة • وفقد الجراكسة الأمل
 فى الوصول الى الحكم مرة أخرى فى تلك المرحلة (٧١) •

وكانت المهام الرئيسية أمام الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته
 الى الحكم مرة ثانية هى تثبيت حكمه تثبيتاً قويا والسيطرة على
 زمام الأهور بنفسه فى الدولة ، والانتقام من الأمراء الذين أذلوه فى
 السابق ، وكذلك تقليص أظافر الأمراء الجراكسة حتى لا يتكرر ما حدث
 فى الماضى من انقلاب عليه وانتزاع السلطنة منه مرة أخرى • وكان
 أول ما بدأ به بعد قدومه من الكرك القبض على الأمراء الجراكسة
 وغيرهم فى يوم واحد وعدتهم زيادة على ثلاثين أميراً • فممنهم من
 أتلفه بالخنق ، ومنهم من غرقه فى النيل ، ومنهم من نفاه ، ومنهم من

(٧٠) ابن ابيك : كنز الدرر ج ٩ الدر الفاخر ص ١٩٧ •

(٧١) ابن ابيك : كنز ج ٩ الدر الفاخر ص ١٨٧ — ١٨٨ ، ابن
 تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ٢٦٨ — ٢٧١ ، المقرئى : السلوك ج ٢
 ق ١ ص ٦٩ — ٧١ ، ٧٨ ، ٨١ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ١
 ص ٤٢٩ — ٤٣١ — ٤٣٤ •

سجنه فأقام مسجوناً عشرين سنة فما دونها (٧٣) وإذا كان الناصر قد تخلص من بييرس الجاشنكير بالقتل ، فقد أودع سلار السجن حتى مات من الجوع ، كما صادر أمواله وقبض على اخوته بتهمة التآمر على قتل السلطان ، كذلك تم القبض على ثلاثمائة من كبار أمراء بييرس الجاشنكير وفرقهم الناصر على أمرائه (٧٣) . ولم يأمن الجراكسة . الذين أيدوا الناصر على أنفسهم بعدما رأوا تشتيت زملائهم ، وعلى ذلك قرر قرا سنقر واقوش الأقرم وهما من كبار الجراكسة سنة ٧١١هـ / ١٣١٠م الى دولة مغول فارس بعد أن شعرا بنية الغدر عند الناصر تجاههما وعزمه القبض عليهما (٧٤) .

وكان الناصر محمد قد جرد حملة من خمسة آلاف فارس من مصر وأرسلها الى الشام للقبض على قرا سنقر وجمال الدين الأقرم ، غير أن أخبار الحملة تسربت قبل رحيلها الى الأميرين عن طريق عيونهما في الجيش وبخاصة قرا سنقر الذي كان له عيون في مصر تمده بالأخبار أولاً بأول ، وكان خدابندا خان مغول فارس يدرك أهمية هذا الأمير ويمنيه بملك بلاد الشام ، لذلك كان من رأى الأقرم الاستيلاء على بلاد الشام ومحاربة الناصر في حين فضل قرا سنقر

(٧٢) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٥٢٤ ، ابن أبيك : كنز الدرر د ٩ الدر الفخر ص ١٩٦ .

(٧٣) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٧٦ — ٧٧ ، ص ٨١ ، ٨٦ — ٨٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة د ٩ ص ١٦ — ١٨ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٤٢ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٣٥ — ٤٣٨ ، وأنظر أيضاً: د. عاشور العصر المالكي ص ١١٩ ، د. حكيم أمين: مرجع سابق ص ٢٧ .

(٧٤) ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ٣٢ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٤٧ ، ابن اياس مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٤٠ .

اللجوء الى المغول وتحريضهم على مهاجمة مصر (٧٥) . وبالفعل استقبل خدابندا خان المغول قرا سنقر والأفرم بترحاب كبير وأقطعهما الاقطاعات الجليلة « فحسننا له الاستيلاء على بلاد الشام ، وقد كان تحريض قرا سنقر هو السبب فى الحصار الذى فرضه المغول على الرحبة عام ٥٧١٢ / ١٣١١م (٧٦) .

وشرع الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته الى الحكم فى زيادة عدد مماليكه الترك لمواجهة الجراكسة ، فاشتري عددا كبيرا من بلاد أذربك وبلاد توريز ، وبلاد الروم ، وبنجداد . وبعث فى طلبهم وذل المكافآت السخية للتجار فى حملهم اليه ، ودفع فى ذلك أموالا عظيمة . ثم أفاض الناصر على مشترواته من الممالك العطايا والمنح السخية دون أن يراعى فى ذلك عادة أبيه ومن كان قبله من السلاطين فى تنقل المملوك فى أطوار الخدمة حتى يتدرب ويتمن ، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة ، فأتاه من الممالك عدد كبير . وقد بلغ ثمن المملوك فى أيامه مائة ألف درهم . وقد رفع السلطان الناصر بعد عودته مباشرة للحكم سنة ٥٧٠٩ / ١٣٠٨م اثنين وثلاثين مملوكا من مماليكه الى مرتبة الامارة ، وفى عام

(٧٥) ابن ابيك : كنز الدرر ج ٩ الدر الفاخر ص ٢١٨ — ٢٢٧ ، ٢٥١ — ٢٥٦ وقد ندم قرا سنقر على تخليه عن نصره المظفر بيبرس والجراكسة بنى جنسه ، فعندما جرى القبض على بيبرس وقيد بالحديد شق ذلك على قرا سنقر فالتقى الكلفتاه عن رأسه الى الارض وقال « لعن الله الدنيا فياليتنا متنا ولا راينا هذا اليوم » . انظر : القرىزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٨٠ .

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٣٢ — ٣٣ ، القرىزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٥ ، ابن ابيك : كنز ج ٩ الدر الفاخر ص ٢٢٩ .

٥٧١٢ هـ / ١٣١١ م أمر أيضا فى يوم واحد ستة وأربعين أميرا (٧٧) .

ولم تؤد اجراءات الناصر محمد بن قلاوون الانتقامية ضد ممالك المظفر بيبرس الى تصفية الجراكسة تماما ، بل دفعت هؤلاء الى التكتل من جديد وتدبير المؤامرات ضد الناصر محمد . من ذلك ماحاوله الأمير بتخاص المنصورى الجركسى بالاتفاق مع الأمير بكتمر الجوكندار على عزل الناصر محمد بن قلاوون وتولية موسى بن الملك الصالح على بن قلاوون عرش السلطنة ، وأيدت ممالك المظفر بيبرس هذه المحاولة ، غير أن المؤامرة فشلت وانتهت بالقبض على بتخاص وكثير من الممالك الجراكسة (٧٨) . وظل الناصر محمد بن قلاوون يتتبع ممالك بيبرس الجاشنكير وسلار والممالك الجراكسة بالنفى والطرده ، كما دأب على ارسال الفداوية لقتل قرا سنقر الهارب لدى المغول ، غير أن محاولاته باءت بالفشل . وأخيرا اهتدى الناصر الى وسيلة يقطع بها أخباز الممالك الجراكسة وبوجه خاص ممالك بيبرس الجاشنكير وهى إعادة روك البلاد فيما عرف بالروك الناصرى . وفى هذا الروك أفرز لخاص السلطان من أرض مصر عدة نواح مما كان فى اقطاعات الجراكسة وهى الجيزة وأعمالها ، والكوم الأحمر ، ومنفلوط ، والمرج والخصوص وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من أصل أربعة وعشرين قيراطا جملة أراضي مصر . ثم نظر السلطان فيما كان بيد بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة من البلاد فأخذ ماكان باسم كل منهما

(٧٧) المقرئى : الخطط د ٢ ص ٢١٤ السلوك د ٢ ق ١ ص ٧٧ ، ١١٧ ، د ٢ ق ٢ ص ٥٢٤ — ٥٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ١٣ ، ٣٤ ، ١٦٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٣٦٦ ، وانظر : د. حكم أمين : مرجع سابق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٧٨) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٩١ — ٩٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ٢٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة د ٢ ص ٥ ، ١٨ — ١٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ، ص ٣٩٨ — ٤٠١ .

وباسم حواشييه ، ولم يدع من ذلك شيئاً مما كانوا قد وقفوه حتى حله وجعل الجميع اقطاعات • وكان لبييرس وسائر متعلقات كثيرة فى بيت المال وفى الأعمال كالجيزة والاسكندرية من متاجر وحمايات فارتجع ذلك كله وأبطله (٧٩) •

وظل الناصر محمد بن قلاوون طوال حكمه يعمل على استئصال شأفة المماليك الجراكسة والحد من خطورتهم ، فواصل سياسة القبض على أمرائهم مثل الأمير أيدير اليونسى ، والأمير بييرس العلمى ، والأمير طستمر أخى بتخاص ، وقد كان هؤلاء من كبار حاشية المظفر بييرس الجاشنكير ومن رؤوس الجراكسة • ولم يفرج عن هؤلاء الا سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤ م بعد أن تقدمت بهم السن ولم يعد لهم شوكة أو خطورة على حكمه (٨٠) • كما لم يأمن الناصر محمد جانب مماليكه الذين سبق أن كانوا فى خدمة المظفر بييرس الجاشنكير ، فعمل على الخلاص منهم بعد أن اتهمهم بالتآمر ضده ، من ذلك ما فعله مع الأمير سيف الدين بكتمر الساقى وابنه سنة ٧٣٣هـ اذ شاعت الأخبار بأن السلطان قتلها بالسم • وبالفعل فقد اتضح للسلطان الناصر فيما بعد وجود مكاتبات من الماس الصاحب الى بكتمر الساقى تفيد بتدبير مؤامرة للاستيلاء على القلعة فى غياب الناصر للحج سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣ م ، وكان بكتمر مرافقا للسلطان فى سفره (٨١) •

(٧٩). المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ١٤٦ ، الخطط د ١ ص ٩٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ٤٢ ، ٥٣ — ٥٤ •

(٨٠). ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ١١٠ •

(٨١). ابن تغرى بردى : النجوم د ٩ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٣٠٠ ، المقرئى : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ابن حجر : الدرر د ٢ ص ١٩ — ٢٠ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ١ ص ٤٦٤ ، ابن تغرى بردى : المنهل د ٣ ص ٣٩٠ — ٣٩٧ •

وزاد السلطان الناصر من احتياطات الأمن فى حالة سفره ،
فخشية الانقلاب عليه أمر الناصر فى حالة غيابه عن مصر ألا يغادر
الأمرء اقطاعاتهم ولا يجتمع أمير مع أمير • وبالنسبة لنواب الشام
كتب لهم بأن يستقر كل نائب بمقر مملكته ولا يتوجه أحدهم الى صيد
الى حين عودة السلطان من سفره (٨٢) • وبرغم كل هذه الاجراءات
التي اتخذها الناصر وتدخل على مدى قلقه وخوفه على عرشه نتيجة
القبض على معظم الأمرء الجراكسة الذين كانوا يمثلون أكثرية الجيش
الملوكى آنذاك ، برغم ذلك فقد تعرض الناصر سنة ٥٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م
للاغتيال من قبل الفداوية الذين أرسلهم قرا سنقر الأمير الجركسى
الهارب لدى المغول • وقد فشلت المؤامرة وقتل الفداوية الا أن
السلطان بالغ بعدها فى الاحتراس على نفسه فمنع عند ركوبه الى
الميدان المتفرجين من الجلوس فى الطرقات ، والزمر الناس بغلق
طاعات بيوتهم (٨٣) •

ونتيجة للاجراءات القمعية المتلاحقة التي مارسها السلطان الناصر
محمد بن قلاوون ضد الجراكسة من جهة ، ولسياسته فى الاكثار من
شراء الممالك الترك من جهة أخرى سكنت حركة الجراكسة وكسرت
شوكهم ببقية فترة حكمه الى أن توفى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، كما
لم تظهر أيضا مقاومة فعالة للجراكسة ضد الترك خلال عهد السلاطين
كجك ، أحمد ، اسماعيل ، من أبناء الناصر محمد •

وعاد النفوذ الجركسى الى الظهور فى عهد السلطان شعبان
٧٤٦ — ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م ، فالأمير غرلو الجركسى (٨٤) تولى

(٨٢) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ •

(٨٣) المقرئى : السلوك د ٢ ق ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ •

(٨٤) المقرئى : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٧٤٧ ، وانظر ترجمته فى
الوافى بالوفيات د ٩ ص ٢٩٤ — ٢٩٦ •

وظيفة شاد الدواوين ، واستحدث ضرائب جديدة على كل من يتولى وظيفة ، وطبق ذلك المبدأ أيضا في المقايضات والنزول عن الاقطاعات وجمع من ذلك مبالغ ضخمة قدمها للسلطان ، ونال بذلك الحظوة لديه . وقد هم السلطان بأن ينعم على غرلو بامرة مائة ، وتولية الوزارة ونيابة دار العدل الا أن كبار الأمراء الترك وعلى رأسهم الأمير أرغون العلائي نائب السلطنة اعترض على ذلك (٨٥) .

واستطاع الأمير غرلو أيضا أن تكون له حظوة عند السلطان المظفر زين الدين حاجي بعد عزل السلطان الكامل شعبان ، وصار غرلو يدخل مع الخاصكية فإذا أشار بشيء قبل السلطان قوله . ولما ساءت سيرة المظفر في الحكم بسبب لهوه حتى أنكر عليه الأمراء ذلك ، أخذ غرلو يحرض السلطان على الفتك بهم وهونهم عليه حتى تمكن الاثنان من الفتك ببعض الأمراء مثل الأمير اقسنقر الناصري ، وملكتهم الحجازي ، فخلا الجو لغرلو وزادت مكانته عند السلطان . وبالإضافة الى ذلك فإن السلطان بتحريض غرلو أيضا وتشجيعه أخذ في استمالة المماليك الجراكسة ، وأمر جماعة منهم ، وأنعم على غرلو باقطاع الأمير ايتمش عبد الغنى وتقدمته ، فأصبح غرلو هو المشار اليه في الدولة وعظمت نفسه الى درجة كبيرة (٨٦) .

وتربص الأمراء بغرلو حتى تم القبض عليه وقتله ، في حين عاد السلطان المظفر حاجي الى لهوه وعبثه واجتماعه مع العامة مما سبب

(٨٥) المقرئى : السلوك د ٢ ق ٢ ص ٦٨٧ - ٦٨٩ - ٦٩٠ .

(٨٦) المقرئى : السلوك د ٢ ق ٣ ص ٧٢٢ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ - ٧٣٤ ، وانظر أيضا : الخطط د ٢ ص ٢٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١٠ ص ١٥٨ - ١٦١ ، أبو الفداء : المختصر د ٤ ص ١٤٩ ، ابن حبيب : تذكرة النبى د ٣ ص ٩٨ - ٩٩ ،

ثورة أمراء المماليك عليه وقتله وتولية الحسن بن محمد بن قلاوون الذى لقب بالناصر بدر الدين أبو المعالى وذلك فى رمضان ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م واستغل الأمراء الترك هذه الظروف وشرعوا فى تصفية المماليك الجراكسة الذين كان المظفر حاجى قد قربهم بسفارة غرلو وتشجيعه ، وكان أمر الجراكسة فى عهد المظفر قد ازداد حتى صار منهم أمراء وأصحاب اخباز ، وتميزوا بكبر عمائهم ، فأخرجوا منفيين خروجاً فاحشاً وهربوا الى البلاد الشامية ^(٨٧) . ويبدو أن تصفية المماليك الجراكسة لم تكن كافية فى هذه الحركة ، ففى خلال شهر ذى القعدة من نفس العام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ترأس المماليك الجراكسة مع الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون على أن يقيموا سلطاناً ، غير أن مؤامرتهم تم كشفها وقبض على أربعين منهم ، وأخرجوا على الهجن مفرقين الى البلاد الشامية ، ثم قبض على ستة ، وضربوا قدام الايوان بالقلعة ضرباً مبرحاً ، وقيدوا وحبسوا بخزانة شمائل . وتم الاتفاق على أن الأمراء اذا انفصوا من خدمة الايوان دخل أمراء المشورة المقدمين الى القصر دون من عداهم من بقية الأمراء وذلك منعا لحدوث مؤامرة جديدة ^(٨٨) .

وكانت أحوال البلاد المصرية قد ساءت فى تلك الفترة ، وزاد تنافس الأمراء الترك وانقسامهم وسعيهم الى تولي المناصب العالية ، فى الوقت الذى لم يكن السلطان حسن سوى العوبة فى يد كبار الأمراء وليس له أمر ولا نهى بينهم ، ونتيجة لهذا الوضع المختل انتشرت بين المماليك شائعة مفادها أن السلطان ينوى القبض على

(٨٧) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٤٧ ، الخط ج ٢ ص ٢٤١ ،
وانظر ايضا : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٠ ص ١٨٦ ، ١٨٨ ،
D. Ayalon, The Circassians., p. 138.

(٨٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٥١ ، ابن تغرى بردى :
النجوم ج ١٠ ص ١٩٠ .

كبار الأمراء الذين يحجرون على تصرفاته ، وأنه أظهر المرض احكاما
لؤامرته ، فبادر هؤلاء بالقبض على السلطان وعزله قبل أن ينفذ
خطته ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م وأقام الأمراء
أخاه صلاح الدين صالح في السلطنة محله (٨٩) .

ولم يكن حظ السلطان صلاح الدين صالح بأفضل من أخيه ،
فاستمرت الفتنة بين كبار الأمراء وعصيانهم دون أن يستطيع السلطان
فعل شيء . وزاد من سوء الموقف مؤامرة الوزير منجك في القاهرة ،
وعصيان نواب حلب وحماه وطرابلس في الوقت الذي اشتدت الأزمة
المالية في مصر . ولما وجد السلطان صالح نفسه عاجزا عن تدبير
الأمر بسبب سيطرة الأمير شيخو على الموقف لجأ إلى الأمير طاز
الذي نال الخطوة لدى السلطان . ولم يستسلم شيخو للموقف ، فبيت
النية مع الأمير صرغتمش على عزل السلطان الصالح أوائل شوال سنة
٧٥٥هـ / ١٣٥٤م . وقد نجحت المؤامرة وأعيد الناصر حسن مرة أخرى
إلى السلطنة . في نفس العام (٩٠) . ويبدو أن الناصر حسن قد
مال في سلطنته الثانية إلى التقليل من الاعتماد على المماليك الترك ،
بل إنه عزم على قطع دابرهم كما يقول المقرئ ، وقدم عليهم أولاد
الناس ، فجعل عشرة منهم أمراء الوف وكان غالب نواب القلاع

(٨٩) ذكر المقرئ أن أيام الناصر حسن خلال سلطنته الأولى كانت
شديدة ، فخرجت العربان بالصعيد والعشير بالشام ، هذا فضلا عن
الفناء العظيم الذي لم يعهد مثله .

انظر المقرئ : السلوك د ٢ ق ٣ ص ٨٣٩ — ٨٤٣ ، ابن تغرى
بردى : النجوم د ١٠ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٩٠) عن الأحوال السياسية في مصر في تلك الفترة انظر ابن تغرى
بردى : النجوم د ١٠ ص ٢٨٤ — ٢٨٧ ، المقرئ : كتاب السلوك
د ٢ ق ٣ سنة ٧٥٣هـ ص ٨٦٧ — ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ص ٩١٩ ، د ٣ ق ١
ص ١ — ٤ .

الشامية في زمانه أولاد ناس • ونتيجة لذلك ، فضلا عن طموح الأمير يلبغا الخاصكى وهو من الترك فقد وقع الصدام المحتمل بين السلطان الناصر حسن والأمير يلبغا الخاصكى • وكان النصر فى صالح الأمير يلبغا الذى تمكن من القبض على السلطان وسجنه ، وأقام مكانه فى السلطنة المنصور محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١ م ، وأصبح يلبغا هو القائم بتدبير الدولة ولم يبق للمنصور سوى الاسم فقط (٩١) • ولم يكف يلبغا بما وصل اليه من نفوذ بـ حجر على السلطان المنصور ، ثم اتهمه باختلال قواه العقلية وعدم أهليته للقيام بأمر المملكة • ووافق باقى الأمراء على رأى يلبغا فى خلع السلطان المنصور واقامة الإشراف زين الدين أبو المعالى شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون فى السلطنة وذلك فى منتصف شعبان سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ م ، ولم يتجاوز عمره عشر سنين (٩٢) •

وعلى الرغم من النفوذ الكبير والوضع المتميز الذى أصبح فيه يلبغا الخاصكى الا أنه أساء سيرة فى ممالكه الأجلاب الذين أكثر يلبغا من شرائهم • وقد أجمع هؤلاء أمرهم على الفتك بأستاذهم يلبغا والخلاص منه ، ولاذوا بالسلطان شعبان كى ينصرهم على يلبغا • ووجد السلطان شعبان الفرصة مثالية أمامه للخلاص والتحرر من سطوة يلبغا وتحكمه فانضم الى ثورة المماليك الأجلاب • وأدرك يلبغا

(٩١) المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٦٢ — ٦٥ • وقد ذكر ابن تغرى بردى أن الناصر حسن كان يقول عن أولاد الناس « هؤلاء مأمونو العاقبة ، وهم فى طى على ، وحيث وجهتهم اليه توجهوا ، ومتى أحببت عزلهم أمكننى ذلك بسهولة ، وفيهم أيضا رفقا بالربة ومعرفة بالاحكام » . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم د ١٠ ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ •

(٩٢) المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٦٢ — ٦٥ ، وانظر ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٦ — ٧ •

أن الأمر قد خرج من يده ، فلعب ورقة أخيرة وهي إقامة أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون سلطانا بدلا من السلطان شعبان ، غير أن هذه الحيلة لم تقدر يلبغا شيئا بعد أن خذلت ممالكه وتفرقت عنه . فآل أمره الى الاستسلام ثم القتل . أما ممالكه فقد جرى معاقبتهم بالحبس والنفي سنة ٥٧٦٨ / ١٣٦٧ م . ثم أخذت الأمور تتطور الى الأسوأ وتتذر بزوال دولة بنى قلاوون لأن الممالك الأجلاب اليلبغاوية لم تهدأ ثورتهم ، وكان معظم هؤلاء الأجلاب من الجراكسة مما اضطر السلطان شعبان الى القبض على بعضهم ونفى البعض الآخر الى الكرك . والأمر الهام فى أحداث تلك الفترة هو اشتراك عدد من الجراكسة فى الصراع الدائر . وكان من بين هؤلاء الجراكسة برقوق مؤسس دولة الممالك الثانية أو دولة الممالك الجراكسة (٩٣) .

الأمير برقوق والانتصار الحاسم للجراكسة على الترك :

هو برقوق بن أنص ، أصله من بلاد الجركس ، وجنسه «كسا» . أخذ من بلاده وتم بيعه فى مدينة « قروم » ، وجلبه خواجا عثمان ابن مسافر الى مصر حيث اشتراه الأتابك يلبغا العمرى الخاصكى الناصرى فى حدود سنة ٥٧٦٤ / ١٣٦٣ م وأعتقه وجعله من جملة ممالكه الأجلاب (٩٤) . وظل برقوق ضمن ممالكه يلبغا الخاصكى حتى

(٩٣) المقريزى : السلوك د ٣ ق ١ ص ١٣٠ — ١٣٦ ، ١٤١ — ١٤٥ ، ابن نديم : الجواهر الثمين ص ٤١٦ — ٤٢٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٦ — ٤٠ ، وانظر د. حكيم : مرجع سابق . ص ٣٢ — ٣٥ .

(٩٤) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٢٣ — ٢٢٦ ، المقريزى ، كتاب السلوك د ٣ ق ٢ ص ٤٧٦ ، ٩٤٣ ، الصيرفى الجوهري : نزهة النفوس والأبدان د ١ ص ٤٩٧ ، ابن اياس : مصدر سبق د ١ ق ٢ ص ٢٧٧ ، ٣٠١ ، ٣١٢ ، ٣١٩ .

قتل ذلك الأمير على يد مماليكه فى ربيع الآخر سنة ٥٧٦٨ بسبب سوء معاملته لهم • وتلى ذلك القبض على معظم ممالك يلبغا ، فقتل بعضهم ، وحبس أكثرهم • وكان برقوق ضمن الحبوسين حتى أفرج عنه (٩٥) •

واشترك برقوق فى ثورة الممالك اليلبغاوية مرة أخرى سنة ٥٧٦٩ / ١٣٦٨م بزعامة الأمير استدمر الناصرى الأتابك وشريكه الأمير خليل بن قوصون • وطالب الثوار بعزل السلطان شعبان ، كما حدثت حروب وفتن بين الممالك انتهت بتمزيق الممالك اليلبغاوية مرة أخرى وقتل عدد كبير منهم ، فى حين نفى من تبقى منهم الى الشام • وكان برقوق ضمن هؤلاء المنفيين حيث ظل محبوسا فى جب مظلم فى قلعة الكرك عدة سنين حتى أفرج عنه ، فانضم الى ممالك

= وقد نفى ابن تغرى بردى مآذره المقريزى وابن اياس من أن برقوق كان اسمه فى البداية الطنبغا أو سودون ثم غيره استاذه يلبغا الى برقوق •

وانظر سيرة برقوق كما كتبها الكاتب اللاتينى دى ميغانللى B. De Mignaneli المترجم فى بلاط السلطان برقوق • ونشرها فشل W. J. Fischel فى مجلة :

Arabica vol. 6, 1969, pp. 57 — 74, 152 — 172 .

• بعنوان : « Ascensus Barcoch » صعود برقوق •

(٩٥) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ق ٣٥ — ٤٠ ، ٢٢٣ ، المقريزى : السلوك د ٣ ق ١ ص ١٣٠ — ١٣٧ ، ابن دقماق : الجواهر الثمين ص ٤١٥ — ٤١٩ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤٥ — ٥٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة د ٥ ص ٢١٣ — ٢١٥ •

الأمير منجك اليوسفى نائب الشام^(٩٦) . وفى أواخر عام ١٣٧٥ هـ / ١٣٧٣ م استدعى السلطان شعبان الأمير منجك اليوسفى من نيابة الشام الى القاهرة وعينه نائبا للسلطنة وفوض اليه النظر فى الأحباس والأوقاف والوزارة . وقد عاد برقوق مع سيده منجك الى مصر ، والتحق بخدمة أولاد السلطان الأشرف شعبان جنديا عاديا^(٩٧) . وأخذ دور برقوق يتصاعد على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى مصر فى ذلك الوقت ، واشترك فى معظم المؤامرات التى دبرت للاطاحة بكبار الأمراء أو حتى بالسلطين أنفسهم ، فكان برقوق من جملة المماليك الذين ثاروا بعد سفر السلطان الأشرف شعبان الى الحجاز سنة ١٣٧٨ هـ / ١٣٧٦ م^(٩٨) .

وانتقل برقوق الى خدمة سيد جديد هو الأمير قرطاي الطازى ، وحتى ذلك الوقت لم يكن لبرقوق شأن يذكر بل كان جنديا عاديا الى أن اشترك فى المؤامرة مع الأمير اينبك البدرى الذى كان يشغل وظيفة أمير أخور ضد قرطاي الطازى الأنابك فى سنة ١٣٧٩ هـ / ١٣٧٧ م ،

(٩٦) ابن ديمق : مصدر سابق ص ٤٢٣ — ٤٢٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٤٠ — ٤٩ ، ٢٢٣ ، المقرئى : كتاب السلوك د ٣ ق ١ ص ١٥٢ — ١٥٥ ، د ٣ ق ٢ ص ٤٧٦ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٥٥ — ٥٨ ، ٦٨ — ٧١ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى د ٢ تحقيق د. محمد أمين ص ٤٤٠ — ٤٤٣ ، ابن حجر : الدرر د ١ ص ٤١٣ ، وانظر د. حكيم : مرجع سابق ص ٣٩ .

(٩٧) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٦٤ — ٦٥ ، ٢٢٣ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ١٥٥ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ ، د ٣ ق ٢ ص ٤٧٦ ، الجوهري الصيرفي : مصدر سابق د ١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٣١٩ ، ابن ديمق : مصدر سابق ص ٤٢٨ .

فنال برقوق عندئذ ترقية الى امرة طبلخاناه دفعة واحدة (٩٩) .
وعندما ثار نواب المدن الشامية بالاشتراك مع قرطاي الذي كان قد
أبعد الى حلب ، مع طشتقر في ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ ضد السلطان
المنصور على — ابن الأشرف شعبان — والأتابك اينبك بادر السلطان
والأتابك باخراج مماليكهما للتوجه الى بلاد الشام لخماد الثورة . وما
أن خرجت المقدمة وفيها برقوق وفيها السلطان المنصور على واينبك
البدري حتى شاعت الأخبار بثورة بغية المماليك في القاهرة ، فعاد
اينبك مسرعا صحبة السلطان ، ولكن الفتنة اتسعت ولاذ اينبك بالفرار
ثم استسلم أخيرا بعد أن أدرك صعوبة الهرب . وقد كان برقوق هو
رأس هذه المؤامرة ومحرك سلسلة أحداثها (١٠٠) .

وأُسفرت هذه الفتنة عن تركيز السلطنة في يد الأمير يلبيغا
الناصرى الذى سكن الاسطبل السلطانى . ولكن يلبيغا كان لين الجانب
فاستخف به برقوق وزميله برکه التركى ، وركب الاثنان مع مماليكهما
وقبضا على كثير من الأمراء فى حين لم يظهر يلبيغا أى اعتراض على
ذلك ، وقد نال برقوق ترقية أخرى بعد هذه الفتنة وأصبح أمير
أخور وأمير مائة مقدم ألف ، وسكن الاسطبل السلطانى مع الأمير
يلبيغا الأتابك ، أما برکه زميل برقوق فقد أصبح أمير مجلس ، كما
استدعى الأمير طشتقر الداودار من نيابة دمشق واستقر أتابكا

(٩٩) ابن حجر : أنباء الفخر د ١ ص ١٥٠ (تحقيق د. حسن حبشى)
ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٦٥ ، ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٥٣ —
١٥٨ ، ٢٢٣ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .
(١٠٠) المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٣١١ — ٣١٤ ، ابن تغرى
بردى : النجوم د ١١ ص ١٥٦ — ١٥٩ ابن اياس : مصدر سابق
د ١ ق ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٩ .

فى مصر (١٠١) .

وكان برقوق من الذكاء بحيث أخفى نواياه الحقيقية فى الوصول الى الحكم ورفع شأن بنى جنسه الجراكسة ، فأشرك زميله برکه وهو تركى فى معظم محاولاته لازاحة كبار الأمراء حتى خلا المسرح السياسى والعسكرى لهما وعندما حانت الفرصة المناسبة ضرب برقوق ضريته ضد برکه . وهكذا فان برقوق لم يقنع بالترقية الى وظيفة أمير خور ، ولم يعجبه استدعاء طشتمر نائب دمشق لتولى وظيفة الأتابكية فى مصر وهى الوظيفة التى تؤهل صاحبها لمنصب السلطنة . وأخذ برقوق يتحرش بالأتابك طشتمر حتى يكون الخلاف بينهما سببا فى اثاره الفتنة ، ثم طلب برقوق أن يقبض طشتمر على أحد مماليكه وهو كمشبغا رأس نوبة طشتمر ويخرجه منفيا . ومع أن طشتمر استجاب لذلك الطلب درءا للفتنة الا أن برقوق حقق غرضه لأن بقية ممالك طشتمر ثاروا فى وجهه وعنفوه على استسلامه لبرقوق . واستعد الطرفان للحرب التى خطط لها برقوق جيدا مع زميله برکه ، فكان النصر فى صالح برقوق وتم اعتقال طشتمر مع كبار مماليكه وأرسل الجميع الى سجن الاسكندرية ، فى حين أصبح برقوق أتابكا للعسكر بالديار المصرية فى ذى الحجة من عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ، كما أصبح برکه رأس نوبة كبير ، وعين أيتمش البجاسى صديق برقوق أمير أخور ، فكان هؤلاء الثلاثة هم أصحاب الحل والعقد والدولة وكبيرهم برقوق حتى قالت العلامة « بوقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » . أما يلغيا الناصرى فقد تلاشى دوره السياسى والعسكرى

(١٠١) المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٣١٤ ، ابن تغرى بردى :
النجوم د ١١ ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ابن حلق : الجواهر الثمين ص ٤٤٥ ،
ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٢١٠ ، ابن حجر : انباء الغمر
د ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

فى هذه الفترة وسجن فى الاسكندرية ، ثم أفرج عنه فيما بعد وتولى
نيلبة طرابلس (١٠٣) .

وكان وصول برقوق الجركسى الى منصب الأتابك بمثابة الصدمة
للمماليك الترك من عنصر القبطاق ، فشرعوا فى تدبير المؤامرات
لازاحته والخلاص منه ، ولكن عيون برقوق التى كانت فى كل موقع
نجحت فى كشف هذه المؤامرات ، فاستعد لها برقوق جيداً ونجح
فى القضاء عليها . ومن هذه المؤامرات تلك التى دبرها مماليك
السلطان ومماليك طشتمر الأتابك السابق ، وكذلك مؤامرة الأمير اينال
اليوسفى أمير سلاح . وقد تم القبض على اينال ومماليكه وحرم
من اقطاعه وأنعم به على يلبغا الناصرى الذى استدعى من
طرابلس (١٠٣) .

ومن الواضح أن برقوق قد أصبح بعد نجاحه فى القضاء على
هذه المؤامرات من أقوى الشخصيات فى الدولة ، وتطلعت نفسه
الى منصب السلطنة ، لكنه أدرك أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهذه
الخطوة قبل ازاحة الأمير بركة التركى من طريقه . وكما لاحظنا فقد
كان بركة شريكاً لبرقوق فى كل مؤامراته من أجل تصفية كبار الأمراء .

(١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ١٦٢-١٦٤ ، المقرئى :
السلوك د ٣ ق ١ ص ٣٢٢ - ٣٢٥ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٤٥
- ٤٤٦ ، ابن قاضى شهبه : تاريخه المجلد الأول ص ٤٢ ، ابن حجر :
انباء الغمر د ١ ص ١٥٤ - ١٥٦ ابن خلدون : التعريف ص ٣٥٧ ، ابن
ياس : د ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(١٠٣) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٦٧ -
١٦٩ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ابن
قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٩ - ١٠ ، ابن حجر : انباء الغمر د ١
ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ابن
ياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٤٩ .

وكان برقوق أكثر دهاء ومكرا من بركة فطلب من القضاة والعلماء التوسط بينه وبين بركة لازالة ما بينهما من خلافات اوجدها برققوق نفسه . وهكذا ظهر برققوق بمظهر المسالم وكسب تأييد هذه الطوائف فى الصراع بينه وبين بركة . وأخيرا نشبت الحرب بينهما سنة ٥٧٨٢ / ١٣٨٠م ، وكالعادة فقد كان برققوق قد بيت النية لها واستعد جيدا بمماليكه ، فانتهت الحرب بانتصار برققوق وهزيمة بركة وحبسه فى سجن الاسكدرية ، وبلغ دهاء برققوق حدا أن أوعز الى نائب الاسكدرية خليل بن عرام بأن يقتل بركة فى السجن ويعددها سلم برققوق خليل بن عرام الى مماليك بركة فمزقوه اربا . ثم شرع برققوق فى تصفية مماليك بركة والقضاء عليهم بالحبس والنفى ، وبذلك تخلص برققوق من معظم المماليك الترك وأصبح أغلب أمراء الدولة جراكسة من أتباعه « فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وانتشيت بعدها دولة الجراكسة من يومئذ » (١٠٤) .

وهكذا تعاضم نفوذ برققوق وتخلص من كبار منافسيه ، ولم يبق أمامه حائل لتولى السلطنة سوى بيت قلاوون والمماليك المؤيدين له . ولم يكن برققوق فى عجلة من أمره ، وأدرك أنه لن يخسر شيئا من وجود طفل فى منصب السلطنة ، لذلك تظاهر برققوق بحرصه على أن يتولى أحد أبناء الأشراف شعبان الحكم بعد وفاة السلطان المنصور على . وعندما سرت شائعة بأن الناس يتحدثون عن سلطنة الأتابك .

(١٠٤) القرىزى : السلوك د ٣ ق ١ ص ٣٧٩ — ٣٨٥ ، ٣٩٦ — ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ١٧٤ — ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ابن قاضى شهبه : المجلد الاول ص ٢٣ — ٢٦ ، ٢٢ — ٢٤ ، ابن دقاق : مصدر سابق ص ٤٥٠ — ٤٥٣ ، ابن حجر : انباء الغمر د ١ ص ٢١٠ — ٢١٥ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٢٥٥ — ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، .

William Muir, op. cit., p. 102, Note.2 ;

De Mi Gnanelli, op. cit., pp. 71 — 73.

برقوق واعتراض الأمراء على ذلك بقولهم « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلينا » عندما حدث ذلك أسرع بقوق وجمع الأمراء والقضاة والخليفة وتكلم معهم في سلطنة أحد أبناء الأشرف شعبان ، فأسرع الجميع بالموافقة على تعيين الصالح حاجي بن الأشرف شعبان سلطانا على مصر والشام في ٢٤ صفر سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م وهو ابن تسع سنوات ، في حين ظل بقوق أتابكا ومديرا لشئون الدولة (١٠٥) .

ومع أن بقوق صار هو المسيطر على كل انقذرات السياسية والعسكرية في مصر في تلك الفترة الا أن ذلك لايعنى عدم وجود معارضة له ، فالقتن والمؤامرات كانت السمة الظاهرة في تاريخ دولة المماليك بأسرها لاسيما عندما يكون هناك سلطان طفل فيطمع عندئذ كل أمير في القفز الى منصب السلطنة . وقد أصبحت هذه الظاهرة واضحة أكثر في أواخر دولة بني قلاوون عندما حدث خلل في نظام الجندية المملوكي الذي درج عليه المماليك منذ نشأة دولتهم . فقد كان ذلك الخلل راجعا في بعض أسبابه الى الصراع العنصرى بين القبجاق الترك والجراكسة . لقد كانت القاعدة هي أن يتدرج الفارس المملوكى من جندى حلقه عادى الى أعلى الرتب وفقا لترتيب معين . ولكن تلك القاعدة جرى التجاوز عنها واهمالها كلية في أواخر دولة بني قلاوون حتى أصبح من الممكن أن يترقى الجندى العادى الى المناصب العالية دفعة واحدة دون أن يمر بالتدرج الطبيعى . وقد استفاد بقوق نفسه من تلك الأوضاع عندما ترقى من جندى عادى الى امرة طبلخانة دفعة واحدة ثم منها الى أمير أخور ثم أمير مائة مقدم الف حتى شغل وظيفة أتابك العسكر . وقد شجعت هذه الأمور صغار

(١٠٥) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٤٣٦ — ٤٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١١ ، د. طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٤ .

المماليك على المتمردين والثورة واغتيال كبار الأمراء طمعا في الفوز بمناصب أعلى . وقد وصف ابن تغري بردي تلك الحالة وصفا دقيقا بقوله « فانه من يوم قتل الأشرف شعبان وصار طشتمر اللغاف من الجندية أتاك العساكر ثم من بعده قرطاي الطازي ، ثم من بعده أينبك البدرى ، ثم من بعده قطلقتمر ، ثم الأتابك برقوق وبركة . وكل هؤلاء كان اما جنديا أو أمير عشرة وترقوا الى هذه المنزلة بالوثوب واقامة الفتنة طمع كل أحد أن يكون مثلهم ويفعل ما فعلوه ، فذهب لهذا المعنى خلائق ولم يطلوا الى مقصودهم » (١٠٦) .

ومن الثورات التي نشبت ضد برقوق ثورة مملوكه ايتمش مع بعض صغار المماليك سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م ، وقد أخمدتها برقوق ، وبعدها شعر بضرورة تولي منصب السلطنة ، وبوجه خاص بعد أن صفا الجوله بموت اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشاهم برقوق وهما الأمير اقتمر عبد الغنى نائب السلطنة ، والأمير أيدير بن عبد الله التمشي ، فقد كانا من قدامى الأمراء . ثم ان برقوق قوى من غضبيته بأن جلب الى مصر عددا كبيرا من الجراكسة وأنعم عليهم بالوظائف الاقطاعية الكبيرة حتى « صار غالب العسكر مماليك جراكسة » ، وانحط قدر الأتراك . . . فعند ذلك أخذ الأتابكي برقوق في أسباب أمر سلطنته « . . . وكان أن عقد برقوق في شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م مجلسا حضره الأمراء والقضاة والخليفة العباسي للتشاور في اختيار سلطان قوى يحمى البلاد ويدفع الفساد لأن السلطان الملك الصالح حاجي صغير السن كما قلت حرمة في البلاد وبين الناس وأن الوقت « محتاج الى ملك عاقل يستبد بأحوال الدولة

(١٠٦) المقرئى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ج ٣ ق ٢ ص ٧٣ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٢١٢ - ٢١٤ ، وانظر ايضا : د. طرخان - مرجع سابق ص ٥ .

ويقوم بأمور الناس ، وينهض بأعباء الحروب والتدبير » • وقد
رشح الحاضرون الأتابك برقوق لتولى منصب السلطنة ، كما خلعوا
السلطان حاجي • وهكذا نال برقوق هدفه الذي خطط له منذ أن وُطئت
قدمه أرض مصر ، وانقضت بذلك دولة الأتراك من مصر وزالت دولة
بنى قلاوون ، وبدأت دولة الجراكسة (١٠٧) •

ومع أن السلطان برقوق شرع فور وصوله الى العرش فى
القيام بحركة ترقيات لماليكه واعتقالات للماليك الأشرافية وغيرهم من
الترك بهدف تثبيت نفوذه وسيطرة الجراكسة سيطرة تامة على الدولة
الا أن ذلك لايعنى عدم وجود معارضة قوية ضده من عناصر مختلفة
أغلبها من الترك (١٠٨) • ذلك أن السرعة الكبيرة التى وصل بها برقوق
الى منصب السلطنة قد جعلت معظم الأمراء لايشعرون بالولاء
الحقيقى له ، ومعظم من أطاعه كان بدافع الخوف أكثر منه بدافع
الاخلاص لاسيما أن غالبية الأمراء الترك قد شعرت بالقلق من تسلط
الجراكسة على الدولة • وقد عبر عن ذلك القلق الأمير الطنبغى
السلطانى نائب ابلستين ، فقد أعلن عصيانه على برقوق ، وفر هاربا
الى بلاد المغول ، وقال : « لا أكون فى دولة حاكمها جركسى » ،
كما فر الأمير أقبغا بن عبد الله نائب غزة والتجأ الى الأمير العربى

(١٠٧) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٤٦٢ ، ٤٧٤ - ٤٧٥ ،
ابن تغرى بردى : التجوم د ١١ ص ٢١٤ - ٢١٩ ، ابن حجر : انباء
الغمر د ١ ص ٢٥٧ ، الصيرفى الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٣٦ -
٣٨ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ ،

William Muir, op. cit., p. 103.

وانظر أيضا :

D. Ayalon, The Circassians., p. 138 — 139.

• (١٠٨) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٤٧٩ ، الصيرفى : مصدر
سابق د ١ ص ٥٠ .

نعير ، بل ان الخليفة العباسى المتوكل برغم أحوال الخلافة المتردية آنذاك قد طمع هو الآخر فى الاستيلاء على السلطنة ، هذا فضلا عن مؤامرات بعض صغار المماليك الأجلاب فى القاهرة (١٠٩) .

ونتيجة لذلك فقد شعر برقوق بعدم الاطمئنان وأن عرش السلطنة غير ثابت وأن فضال الجراكسة للوصول الى الحكم قد يذهب سدى ، فقام بإجراءات سريعة ضد كل من شك فى ولائه أو تخوف منه لاسيما كبار الأمراء ، وطلب منهم برقوق ألا يمكنوا أحدا من مماليكهم بدخول قصره فى القلعة ، وإذا دخل الأمراء لم يدخل مع كل أمير سوى مملوك واحد ، وأن يكون باقى مماليكهم واقفين ينتظرونهم خارج باب القصر (١١٠) . واستدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى من نيابة حلب الى القاهرة سنة ٥٧٨٧ / ١٣٨٥ م وما أن وصل يلبغا الى بلبيس حتى قبض عليه وأرسل الى الاسكندرية سجيناً وصودرت أمواله بعد أن توافرت معلومات لدى السلطان برقوق عن تأمر يلبغا مع سولى بن دلغادر أمير التركمان ، فضلا عن أن يلبغا كان من حزب بركة عندما نشب النزاع بين هذا الأخير وبرقوق . ثم قبض برقوق بعد فترة وجيزة على عشرة من مماليكه الاضافه الى الأمير تمر بغا الحاجب وأعدمهم بتهمة التآمر ، كما أمر برقوق

(١٠٩) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٤٩٣-٤٩٥ ، الجوهري الصيرفي : مصدر سابق د ١ ص ٩٢ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الاول ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن حجر : انباء الغمر د ١ ص ٢٧٥ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ٣٣٢ - ٣٣٣ ، ٣٤٤ ،

William Muir, op. cit., p. 106.

ونظر ايضا : د. طرخان : مرجع سابق ص ٥٩ .

(١١٠) الجوهري الصيرفي : مصدر سابق د ١ ص ١١٤ ، ابن حجر : انباء الغمر د ١ ص ٣٠١ .

ينفى عدد كبير من ممالك الأمير أيتمش البجاسى والممالك
الأشرفية (١١١) .

ويبدو أن هذه الاجراءات التى اتخذها برقوق قد زادت كبار
الأمرء تخوفا من القبض عليهم ، وأسرع الأمير بيدمر نائب دمشق
بإعلان عصيانه وقطع الأموال عن مصر ، ثم سرت شائعة بأن الأمير
بيدمر يسعى الى سلطنة ابنه محمد شاه ، فلما سمع برقوق ذلك
حبسهما فى قلعة دمشق مع كل أنصارهما ، وعين مكانه فى نيابة
الشام الأمير الطنبغا الجوبانى (١١٢) ، ثم أفرج برقوق عن يلبغا
الناصرى وأعادته الى نيابة حلب ، وزاد من موقف برقوق السوء فى
ذلك الوقت عصيان الأمير تمرغا الأفضلى الأشرفى نائب ملطية وهو
المشهور باسم منطاش ، وانضمم عدد كبير من الممالك الأشرفية
والعناصر التركمانية الأخرى فضلا عن القاضى برهان الدين صاحب
سيواس ، ونائب البيرة الى ذلك العصيان (١١٣) . وزادت الفتنة ضد
برقوق وكثرت الوشائيات لديه فى كبار الأمرء ، وسرت شائعات بتمرد
عدد كبير منهم ، فاستدعى السلطان برقوق الأمير الطنبغا الجوبانى
نائب الشام وقبض عليه فى القاهرة أواخر سنة ٥٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ،
كما ألقى القبض أيضا على الأمير كمشبا نائب طرابلس . بل أن

(١١١) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٥٣٤ ، ٥٤١ ، الجوهرى :
مصدر سابق د ١ ص ١١٩ - ١٢٠ ، ص ١٢٨ ، ابن قاضى شهاب ،
تاريخه المجلد الأول ص ٤١٧ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٢٦١ ،
(١١٢) ابن مصرى : تاريخه ص ١ - ٢ ، الجوهرى : مصدر
سابق د ١ ص ١٢٨ .

(١١٣) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٥٤٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٣ ،
٥٧٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٥١ ، الجوهرى : مصدر
سابق د ١ ص ١٥٨ ، ابن حلق : مصدر سابق ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ،
ابن حجر : انباء الغمر د ١ ص ٣٣٢ ، ابن اياس : مصدر سابق
د ١ ق ٢ ص ٣٩٠ .

برقوق من فرط تخوفه أصدر أمرا بالقبض على أمراء البطالين جميعا في بلاد الشام حتى لايشكلوا قوة يستخدمها المتمردون من أعدائه ، وقد أدت هذه الأمور كلها الى ازدياد موجة الكراهية والعصيان ضد برقوق (١١٤) .

وفشلت جهود برقوق في السيطرة على الموقف ، وأصبح موقفه أكثر صعوبة عندما أعلن يلغا الناصري نائب حلب العصيان وتحالف مع منطاش نائب ملطية ، وانضم اليهما بعض أمراء طرابلس بزعامة بزلار وقتلوا نائب المدينة . ثم استقطاع منطاش أن يستولى على حمص ، كما تواترت الأخبار بدخول سائر أمراء الشام والمماليك اليلغاوية والأشرقية وسولى بن دلغادر أمير التركمان ونعبر أمير العربان في طاعة يلغا الناصري وعزم الجفيع على محاربة السلطان برقوق (١١٥) . وقرر برقوق قبول التحدى ومواجهة العصيان وأعد حملة كبيرة أرسلها على الفور الى دمشق في ربيع الآخر سنة ٥٧٩١ هـ / ١٣٨٩م وضربت معسكرها على قبة يلغا بظاهر المدينة . وقبل أن يخرج برقوق من القاهرة عمل على استرضاء الجماهير بالغاء كثير من المكوس والضرائب كما أفرج عن الخليفة العباسي المتوكل الذي كان محبوسا . وأخيرا وقع الصدام بين الثائرين وقوات برقوق وانتهى

(١١٤) القرىزى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٥٨٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، الجوهري : مصدر سابق د ١ ص ١٧٦ ، ابن قاضي شهبه : المجلد الأول ص ٢٤٦ ، ابن اياس : د ١ ق ٢ ص ٣٩٢ .

(١١٥) ابن مصرى : تاريخه ص ٣ — ٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، القرىزى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٥٩٠ — ٥٩٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٥٤ — ٢٥٦ الجوهري : مصدر سابق د ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٣٩٣ .

بهزيمة ساحقة لقوات السلطان فى موقعة خان لاجين فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٩١/١٣٨٩م وقتل عدد كبير من قوات برقوق كما فر عدد آخر الى قوات الثائرين فى حين تمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق حيث تم القبض على نائبها طرنتاي المؤيد لبرقوق (١١٦).

وكان للهزيمة التى وقعت فى قوات السلطان برقوق رد فعل سىء بالنسبة له ولرجاله ، فبالإضافة الى قتل كثير من أمرائه الكبار مثل الأمير جركس الخليلي ، فان الموقف فى القاهرة قد اضطرب اضطرابا شديدا وأخذ بزوال دودة الظاهر برقوق ، فأغلقت الأسواق ونهبت الأخباز وشعب الذعر ، وزاد من سوء الحالة انتشار الوباء فى البلاد (١١٧) . أما السلطان برقوق فقد استشاط غضبا واتخذ اجراءات انتقامية عاجلة ضد الأمراء العصاة ، فصادر أموالهم وأرزاقهم فى مصر ، وأرسل الى نائب غزة ابن بلكيش لتجيز الاقامات للحملة الثانية التى يعدها السلطان للزحف على بلاد الشام ، ولكن ابن بلكيش كان هو الآخر مؤيدا للثوار دون علم برقوق ، فأسرع بالخبر المتأمرين بنية السلطان ، وكان الناصرى أسرع فى حركته من برقوق ، ووصل بقواته الى مشارف القاهرة قبل أن يخرج السلطان منها . وفشلت خطة برقوق فى استمالة العامة بالمال ، وإعادة الخليفة الى منصبه مرة أخرى لإبطال حجة يلبغا فى الثورة ، ولم تؤد كل هذه الاجراءات وغيرها الى تماسك جبهة برقوق العسكرية ، فبعد مناوشات قصيرة بين الجانبين شعر الظاهر بعدم جدوى المقاومة بعد

(١١٦) ابن مصرى : تاريخه ص ٧ — ٩ ، ٩ — ١٢ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٦٣ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الاول ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ — ٢٧١ ، الجوهري : مصدر سابق د ١ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ابن دهماليق : مصدر سابق ص ٤٦٦ — ٤٧٠ ،

(١١٧) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٠٠ ،

أن تخلى عنه معظم مماليكه فاضطر الى الهرب والاختفاء فى احدى الدور . أما يلبيغا فقد أعاد الى عرش السلطنة مرة أخرى الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان ، وغير لقبه الى المنصور . ولما كان يلبيغا قد أعلن عن مكافأة لمن يقبض على برقوق فقد وشى به مملوك الخياط الذى اختفى عنده ، فتم القبض عليه ونفى الى الكرك ليحبس به . وهكذا انتهت سلطنة برقوق الأولى بكارثة سنة ٥٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م وشهدت عملية سيادة الجراكسة تراجعاً مريراً بعد أن تم انتصار الترك عليهم (١١٨) .

واختلف أعداء برقوق الذين أصبحت لهم السيادة فى مصر وهم يلبيغا الناصرى ومنطاش والجوبانى ، أما السلطان المنصور فتم يكن له رأى مع هؤلاء ، اختلفوا فى كيفية التخلص من برقوق ، ولكن يلبيغا رأى الابقاء عليه حياً بحجة خوفه من ممالك برقوق اذا تم قتله ، ولكن الحقيقة أن يلبيغا أراد الاحتفاظ ببرقوق حياً كي يكون ورقة رابحة يهدد بها منطاش والجوبانى فى الصراع المتوقع بين الثلاثة . وعلى الرغم من أن يلبيغا الناصرى قد أصدر منشوراً بالأمان للمالليك الجراكسة ، وأن جميع الممالك والأجناد على حالهم ولا يخرجون عن اقطاعاتهم ، على الرغم من ذلك فقد جرت حركة اعتقالات واسعة

(١١٨) ابن مصرى : تاريخه ص ١٨ — ١٩ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٠٣ — ٦٠٩ ، ٦١٠ — ٦١٥ ، ٦٢٧ — ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ ، ٣١٩ — ٣٢٢ ، ٣٢٥ — ٣٢٦ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ١٩٥ — ٢١٠ ، ٢٢٠ — ٢٢٣ ، ابن قاضى شهبه : تاريخه المجلد الأول ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ — ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٦٧ — ٤٦٩ ، ابن حجر : انباء الغر د ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٠ .
وانظر أيضاً :

لسكرار الأمراء منهم تسعة من مقدمى الألوف وعدد آخر من أمراء
الطبلخاناه ، كما نفى بعضهم الى الشام ، وهدد بشنق كل من يبقى
فى القاهرة الا من يكون قد عين لخدمة السلطان أو غيره من
الأمراء (١١٩) .

ولم يستمر الوفاق طويلا بين الحلفاء الثلاثة ، فبالإضافة الى
أن بنية النظام الملوكنى منذ انشائه قائمة على أساس التفاضل
والصراع بين القائمين فى السلطة ، فان سلوك الناصرى وسوء بنيته
فى الحكم عجلت بالصراع مع الجوبانى ومنطاش . فالأمير يلغيا
استأثر بالسلطة وحجر على السلطان الصغير ، وحاز على أجسار
الاقطاعات ، وأبعد منطاش فى مهام لقتال العربان بالشرقية ، مما
جعل منطاش يحقد على يلغيا ويقسم ألا يرجع عنه « حتى أقتله أو
يقتلنى » . وكان منطاش أكثر ذكاء ودهاء من يلغيا ، فاستطاع استمالة
الماليك الجراكسة الذين بقوا على قيد الحياة فى مصر ، بل وعندهم
بالافراج عن أستاذهم الظاهر بعد الانتصار على الناصرى ، واستطاع
منطاش أيضا أن يجذب الى صفوفه العامة من سكان القاهرة الذين
نعبوا دورا هاما فى الحرب بينه وبين يلغيا واشتركوا فى المعارك
الفعلية ، وهو يمنيهم ويترقق لهم بالكلام قائلا : « أنا واحد منكم
وأنتم اخوتنا وأصحابنا ، فتعصبوا له » ، هذا فضلا عما أنفق عليهم
من مبالغ طائلة من الذهب . وعندما لاح انكسار الناصرى فى المعارك
الدائرة أخذ كبار مماليكه فى التسلك واحدا بعد الآخر والانضمام الى
منطاش حتى انتهى الأمر بهزيمة الناصرى والقبض عليه عند

(١١٩) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
المقريزى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦١٥ ، ٦٢٤ ، ٦٣٢ — ٦٣٤ ، ابن
مصرى : تاريخه ص ٢٠ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٢١٧ —
٢١٨ ، ٢٢٧ ، ابن قاضى شهبه : مصدر سابق المجلد الأول ص ٢٧٩ ،
ابن اياسن : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤٠٤ .

سرياقوس ، واستقر الأمر لمنطاش أتابكا للجيش عوضا عن يلبيغا الذي أودع سجن الاسكندرية (١٢٠) .

وسيطر منطاش على الموقف ، وأنعم على عدد كبير من الأمراء بالترقية من الجندية العادية الى امرة مائة وتقدمة الف دفعة واحدة . وهو اجراء يدل على ماوصل اليه نظام الجندية المملوكي من انحلال وتدهور في ذلك الوقت ، وهو نفس الاجراء الذي طبقه يرقوق مع مماليكه الأجلاب من الجراكسة ، والنتيجة الحتمية لذلك التصرف هو عدم ولاء الأجلاب لأستاذهم لأنهم لم يمروا في مراحل التدريب المتدرجة من الأدنى الى الأعلى ، فكان طبيعيا أن يتخلى الجراكسة الأجلاب عن أستاذهم يرقوق عند أول صدام ، وهو ماحدث فيما بعد مع يلبيغا ومنطاش (١٢١) .

ولم يحفظ منطاش للماليك الجراكسة من مماليك الظاهر يرقوق انضمامهم اليه في الحرب ضد يلبيغا الناصري ، بل وجدهم خطرا عليه ، فقرر التخلص منهم بأن دبر لهم مكيده عندما أعلن عن طلب سائر المماليك الظاهرية للصعود الى القلعة للنظر في أمرهم والانفاق عليهم وقرضيتهم ، فلما طلوعوا الى القلعة أمر منطاش فأغلق عليهم باب القلعة وقبض على نحو المائتين منهم وورصدت جائزة لكل من

(١٢٠) المقریزی : السلوك ح ٣ ق ٢ ص ٦٢٤ ، ٦٤١ - ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ - ٦٤٧ ، ابن تغری بردی : النجوم ح ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٣ - ٣٣٧ ، ٣٣٩ - ٣٤١ ، ابن مصري : ص ٢٠ ، الجوهری : مصدر سابق ح ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن قاضي شهبه : المجلد الاول ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن خلدون : التعريف ص ٢٦١ ، ابن اياس : مصدر سابق ح ١ ق ٢ ص ٤١١ - ٤١٢ ، ٤١٣ ،

D. Ayalon, The Circassians. p. 141.

(١٢١) ابن تغری بردی : النجوم ح ١١ ص ٣٤١ - ٣٤٣ ،

D. Ayalon, The Circassians., p. 140.

يأت بمملوك من ممالك الظاهر برقوق ، وهدد من أخفى أحدا منهم . وقد نجح والى القاهرة فى القبض على بعضهم ، كما تم قتل من كان منهم محبوبا فى قلعة دمشق (١٢٣) . وبذلك اتبع منطاش سياسة معادية للجراكسة بلغت ذروتها فى محاولة استئصال شأفتهم من البلاد .

وأتارت هذه الأحداث مخاوف كبار الأمراء الذين أيدوا من قبل منطاش والناصرى ، فأعلن الأمير بزلار نائب دمشق عصيانه ، فأسرع منطاش بعزله والقبض عليه ، كذلك خرج على منطاش نعيم أمير العربان فى الشام وتحالف مع سولى بن دغادر أمير التركمان ونهبت قواتهما بلاد حلب . وعندئذ أدرك منطاش خطورة الإبقاء على الظاهر برقوق حيا ، فأسرع برسال مندوب من قبله يعرف بالشهاب البريدى ليحث نائب الكرك حسام الدين الكجكى على قتل برقوق . ولحسن حظ برقوق فقد انكشف أمر ذلك المندوب لخفة فيه وشاع الخبر بين أهل الكرك ، ونهض قاضى المدينة يخوفهم من مغبة ذلك العمل ، وانتهى الأمر بعصيان نائب الكرك على منطاش وإطلاق سراح برقوق (١٢٣) .

وأخذ برقوق يعمل على لم شمل ممالكه الهاريين فى كل مكان

(١٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٤٢ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٤٩ — ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٧٢ — ٦٧٣ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٢٤٣ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٨٥ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤١٣ ،
D. Ayalon, The Circassians. p. 140 — 141.

(١٢٣) المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٥١ — ٦٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٤٧ — ٣٥٠ ، ابن مصرى : تاريخه ص ٢٥ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٩ — ٢٥١ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ابن دقماق : مصدر سابق ٤٧٣ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤١٣ — ٤١٤ .

وسار في اتجاه دمشق في الوقت الذي اضطربت الأمور في مصر على منطاش فشرع في الاستعداد لمواجهة برقوق ومنع أن يسافر أحد إلى الحجاز من الخاص والعام إلا بورقة فيها إذن منه وذلك خوفا من انضمام المماليك وهربهم إلى برقوق . ولكن هذه الإجراءات كلها لم تفد منطاش وخرج عليه المماليك في مصر في الوجه القبلي وبوجه خاص في قوص وانضم اليهم العربان ، كما فشلت الحملة التي أعدها منطاش للسفر إلى بلاد الشام ^(١٣٤) . وفي ذلك الوقت كان برقوق قد نجح في هزيمة قوات الشام الموالية لمنطاش وحاول اقتحام دمشق غير أن محاولته فشلت بسبب موقف العامة . وأسرع منطاش وجهز قواته على عجل وسافر بها إلى بلاد الشام حيث التقى في معركة خامية مع برقوق . وحالف الحظ لبرقوق هذه المرة ، ذلك أن قواته هزمت في ١٧ محرم سنة ٥٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م عند شقيب ، فلأذ برقوق بالفرار مع خمسمائة من مماليكه فوجد نفسه في معسكر السلطان المنصور والخليفة والقضاة فقبض برقوق عليهم جميعا وأشهد الجميع على خلع السلطان المنصور وعودة الظاهر برقوق إلى منصب السلطنة مرة ثانية ثم سار الجميع في اتجاه القاهرة . أما منطاش فقد أسقط في يده وكان في دمشق ، وحاول القتال من جديد إلا أنه فشل ففر هاربا . (١٣٥) .

(١٢٤) ابن صبرى : تاريخه ص ٢٥ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٥٩ — ٦٦٠ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ابن قاضى شهبه : المجلد الأول ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، ابن اياس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(١٢٥) ابن صبرى : تاريخه ص ٢٦ — ٢٧ ، ٢٨ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ — ٣٧ ، ٤٩ — ٥١ ، المقرئى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ — ٦٦٧ ، ٦٦٨ — ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٨٠ ، ٦٩٢ — ٦٩٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم د ١١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، ٣٥٥ — ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ — ٣٦٩ ، ٣٧١ ، الجوهرى : مصدر سابق

وكان بعض مماليك الظاهر برقوق فى القاهرة بزعامه الأمير بطا
قد نجحوا فى احتلال قلعة الجبل والحقوا الهزيمة بالحمية التى
تركها منطاش ، ودعوا للسلطان الظاهر برقوق ، وأرسلوا اليه الأخبار
وهو فى طريقه الى مصر . وقد استقبل الظاهر برقوق عند دخوله
القاهرة استقبالا رائعا من قبل جماهير العمامة والأعيان والعلماء
والفقهاء الذين ساءهم حكم يلبغا ومنطاش . وفى القاهرة تجددت
البيعة للظاهر برقوق مرة ثانية من قبل الخليفة والقضاة ، وهكذا
بدأت سلطنة برقوق الثانية فى مستهل شهر جمادى الآخرة من عام
١٣٩٠ هـ / ١٣٩٠ م وبدأت معها خطوات السيطرة التامة للجراكسة
على الحكم فى مصر وتلاشى نفوذ الأتراك (١٣٦) .

ونجح برقوق بمهارة فى التخلص من كل خصومه السابقين مثل
يلبغا ومنطاش بعد أن استعمل كل دهائه حتى أنه أخرج فى البداية
عن يلبغا وجعله قائدا للقوات الحاربة لمنطاش . كذلك تخلص برقوق
من بقايا ممالك بركة الجوبانى ، وأكد بذلك برقوق سيطرة وسيادة
العنصر الجركسى على ماسواه من العناصر ، غير أن الاعتماد على ذلك
العنصر وحده بعد أن أكثر برقوق من شراء أعداد كبيرة منه لم يمنع
المؤامرات التى حيكت ضد برقوق من هؤلاء الجراكسة أنفسهم حتى

د ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١ — ٢٦٧ ، ٢٨٣ — ٢٨٦ ، ابن قاضى شبيهه
المجلد الاول ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ — ٣٢٠ ، ابن قسطنطين :
مصدر سابق ص ٤٧٥ — ٤٧٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٣ ،
ابن ايلس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ — ٤٢٩ .
(١٣٦) المقريزى : السلوك د ٣ ق ٢ ص ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠٣ ،
٧٠٥ ، ابن تغرى بردى : التنجيم د ١١ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، د ١٢ ص ٣
— ٤ ، الجوهرى : مصدر سابق د ١ ص ٢٨٨ — ٢٩١ ، ٢٩٤ —
٢٩٥ ، ابن قسطنطين : مصدر سابق ص ٤٧٧ — ٤٧٨ ، ابن قاضى
شبيهه : المجلد الاول : ص ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ابن خلدون : التعريف ص
٣٦٤ ، ابن ايلس : مصدر سابق د ١ ق ٢ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

أن برقوق ندم في أواخر أيامه بعد المؤامرة التي دبرها مملوكه الخازندار على باي للفتك به . ومع أن المؤامرة تم كشفها وقبض السلطان على الخازندار على باي وعذبه عذابا شديدا حتى يعترف بشركائه ، إلا أن نوايا برقوق قد تغيرت ضد ممالك الجراكسة وندم على أنه لم يسمع نصيحة زوجته خوند الكبرى بعدم الاعتماد على عنصر الممالك الجراكسة فقط دون بقية العناصر (١٣٧) .

ويبدو أن برقوق لم يستطع تنفيذ نصيحة زوجته ، ففقد واثقه الأجل دون أن يتمكن من التعديل العرقي لممالكه ، وظهر ذلك واضحا في ثورات الجراكسة العديدة التي قامت خلال عهد ابنه فرج ، وقد حاول المؤيد شيخ فيما بعد أن يحابي عنصر الترك وأن يختار الجنود من الممالك على أساس الكفاية والمقدرة الحربية وليس على أساس العنصر أو الجنس ، ولكن محاولة شيخ لم يقدر لها البقاء طويلا وعادت سيطرة الجراكسة بعد شيخ من جديد . والظاهرة الجديرة

(١٣٧) عن القتال بين برقوق وكل من يلغيا ومنطاش انظر : ابن تغري بردي : النجوم ح ١٢ ص ٩ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ابن صمري : تاريخه ص ٦٢ — ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، القرينزي : السلوك ح ٣ ق ٢ ص ٧١٢ ، ٧٤١ ، ٧٤٨ — ٧٥٣ ، ٧٨٥ — ٧٨٧ ، الجوهري : مصدر سابق ح ١ ص ٣٠٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ — ٣٣٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ابن دقماق : مصدر سابق ص ٤٧٩ ، ٤٨٢ .

وعن موقف برقوق من الجراكسة ذكر ابن تغري بردي أن خوند الكبرى زوجة برقوق وكانت تركية الجنس قالت له « اجعل عسكري ابلق من أربعة اجناس : تتر وجاركس وروم وتركمان ، تسريح انت وخرتك » فلما حدثت المؤامرة التي دبرها على باي قال لها : « الذي اشرت به على هو الصواب » . انظر : النجوم ح ١٢ ص ٨٢ — ٨٨ ، القرينزي : السلوك ح ٣ ق ٢ ص ٩٠٣ — ٩٠٧ ، الجوهري : نزهه ح ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٩ .

بالملاحظة عند المقارنة بين دولة المماليك الأولى والتي تكونت أساساً من الترك القبجاق ، ودولة المماليك الثانية التي كانت غالبيتها من الجراكسة ، هذه الظاهرة هي أن دولة المماليك الأولى لم تصر أو تلج على أن ينفرد الترك القبجاق وحدهم بالبقاء في الجيش المملوكي ، والتنوع الكبير لعناصر الجيش المملوكي في الدولة الأولى يؤيد ذلك الرأي ، هذا في حين تبدو دولة المماليك الثانية أكثر اصراراً على بقاء الأكثرية المطلقة من الجراكسة ، فالتعصب العنصري يبدو واضحاً في الدولة الثانية عن الأولى (١٢٨) . وترجع أسباب ذلك إلى خوف الجراكسة من أن يفقدوا سيطرتهم وسلطتهم بعد الصراع الطويل الذي خاضوه ضد الترك ، كما أن تجاربهم السابقة في ذلك الصراع جعلتهم لا يثقون في العناصر الأخرى ، وجعلوا كل اعتمادهم على أبناء جنسهم من الجراكسة فقط .

(١٢٨) انظر :

D. Ayalon, The Circassians. p. 140 — 142.

المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية :

ابن الأثير : على بن أحمد ت ٥٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م

(١) الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

ابن أبي الفضائل : مفضل بن أبي الفضائل ت بعد سنة ٧٢٥ هـ

(٢) تاريخ ابن أبي الفضائل (كتاب المنهج السديد والدر القريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) نشره بلوشيه في :
Patrologia orientalis, Tome XII, XIV, XX 1911 — 1928.

ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصرى ت ٥٩٣٠ هـ / ١٥٢٢ م

(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور
الجزء الأول تحقيق محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م

ابن أبيك الدوادارى : أبو بكر عبد الله بن أبيك الدوادارى بعد سنة ٥٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م

(٤) كز الدرر وجامع الفرر - الجزء الثامن الدرة الزكية غى أخبار الدولة التركية تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، الجزء التاسع الدر الفاخر فى سيرة المنت الناصر - تحقيق روبرت هويمر - المعهد الألمانى بالقاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م

(٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب المصرية •

(٦) ————— : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى •
الجزء الثانى تحقيق د • محمد محمد أمين — الهيئة العامة
للكتاب الجزء الثالث تحقيق د • نبيل محمد عبد العزيز —
الهيئة العامة للكتاب •

(٧) ————— : الدليل الشافى على المنهل الصافى •
الجزء الأول والجزء الثانى تحقيق فهد محمد شلتوت —
جامعة أم القرى ١٩٨٣م •

ابن حبيب : الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م •
(٨) تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه •
ثلاثة أجزاء • تحقيق د • محمد محمد أمين •
الهيئة العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٦ — ١٩٨٦م •
ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن حجر ت ٨٥٢هـ •
(٩) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — خمسة أجزاء تحقيق
محمد سيد جاد الحق • الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م •
وما بعدها •

(١٠) ————— : أنباء الغمر بأبناء العمر •
الجزءان الأول والثانى تحقيق د • حسن حبشى — لجنة
أحياء التراث الاسلامى ١٩٦٩ — ١٩٧١ م •
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م •
(١١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر — طبع دار الكتاب اللبنانى
• ١٩٨٣م •

(١٢) ————— : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا

• — دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري — ١٩٧٩م •

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م

(١٣) وفيات الأعيان — تحقيق احسان عباس بيروت •

ابن دقماق : محمد بن أيدهم العلائي ٧٥٠ — ٨٠٩هـ

(١٤) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطين تحقيق

• د سعييد عاشور — جامعة أم القرى •

(١٥) ————— الانتصار لواسطة عقد الأمصار القسم

الأول (دار الآفاق الجديدة — بيروت) •

• ابن صصرى : محمد بن محمد بن صصرى

(١٦) الدرّة المضية في الدولة الظاهرية

تحقيق ولیم • م • برنير — جامعة كاليفورنيا •

• طبع كاليفورنيا بركلي — ولوس انجيلوس ١٩٦٣م • •

ابن عبد الظاهر : محي الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٢م •

(١٧) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر •

تحقيق د • عبد العزيز الخويطر — الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م •

(١٨) ————— : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك

المنصور ، تحقيق د • مراد كامل — الطبعة الأولى — القاهرة

• ١٩٦١م •

ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملقب ت ٦٨٥هـ / ١٣٨٦م

(١٩) تاريخ مختصر الدول (دار الرائد اللبناني) ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م

(٢٠) ————— : تاريخ الزمان — ترجمة عن السريانية الأب

اسحاق أرملة (دار المشرق — بيروت) •

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم • ت ١٨٠٧هـ / ١٤٠٤م •

(٢١) تاريخ الدول والملوك •

المجلدات : السابع والثامن والتاسع تحقيق قسطنطين زريق

وآخرين • بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٢م •

ابن قاضي شهبة : تقي الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م •

(٢٢) تاريخ ابن قاضي شهبة — المجلد الأول تحقيق عدنان درويش

دمشق ١٩٧٧م •

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م •

(٢٣) البداية والنهاية — بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م

(منشورات مكتبة المعارف) ، طبعة دار الفكر العربي —

مصورة عن طبعة القاهرة ١٣٥٨هـ •

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ

(٢٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب •

الجزء الرابع تحقيق د. حسين محمد ربيع — مطبعة دار

الكتب المصرية ١٩٧٢م •

ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م •

(٢٥) تاريخ ابن الوردي أو تنمة المختصر في أخبار البشر •

الطبعة الثانية في جزعين — النجف بالعراق ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م

أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥هـ

(٢٦) الذيل على الروضتين — بيروت ١٩٧٤م — (طبعة دار

الجيل — بيروت) •

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل ت ١٧٣٣هـ / ١٣٣١م

• (٢٧) المختصر فى أخبار البشر — (دار المعرفة بيروت)

أبو الفضائل : محمد بن على بن نظيف الحموى ت بعد سنة ٦٢٩هـ /

• ١٢٣٢م

(٢٨) التاريخ النصورى ، تحقيق أبو العيد دودو دمشق

• ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م

البديلى : شرف خان — بعد سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م

(٢٩) شرفنامه ج ٢ تعريب محمد على عونى ومراجعة يحيى

الخشاب طبع عيسى البابى الحلبي وشركاه — القاهرة

• ١٩٦٢م

• الخزرجى : أبو الحسن على بن الحسن

• (٣٠) العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية

• طبع صنعاء ، بيروت ١٩٨٣م

• الخطيب الجوهري : على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠هـ

• (٣١) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان

• ثلاثة أجزاء تحقيق د. حسن حبشى • مطبعة دار الكتب

• بالقاهرة ١٩٧٠م

• رشيد الدين : فضل الله الهمداني ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م

• (٣٢) جامع التواريخ المجلد الثانى فى جزعين

• ترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد وآخرين — طبعة دار احياء

• الكتب العربية (عيسى البابى الحلبي) القاهرة ١٩٦٠م

الصفدى : صلاح الدين خليل ٥٧٦٤ / ١٣٦٢ م •

(٣٣) الوافى بالوفيات — طبع بيروت •

الصقاعى : فضل الله بن أبى الفخر الصقاعى • ت ٥٧٢٦ / ١٣٢٦ م •

(٣٤) تالى كتاب وفيات الأعيان •

تحقيق جاكين سوبله — دمشق ١٩٧٤ م •

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ت

(٣٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة •

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم •

جزءان — الطبعة الأولى — عيسى الحلبي ١٩٦٨ م •

القلقشندي : أبو العباس أحمد ت ٨٢١ / ١٤١٨ م •

(٣٦) صبح الأعشى فى صناعة الانشا طبع بيروت •

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد ت ٨٤٥ •

(٣٧) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك • الجزء الأول فى ثلاثة

أقسام ، الجزء الثانى فى ثلاثة أقسام ، تحقيق د • محمد

مصطفى زيادة — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة

١٩٣٤ — ١٩٥٨ م ، الجزء الثالث فى ثلاثة أقسام تحقيق د •

سعيد عاشور — مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ — ١٩٧١ م

(٣٨) ————— : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار

— طبع دار صادر بيروت •

(٣٩) اغاثة الأمة بكشف الغمة • منشورات دار الوليد — حمص

الشام ١٩٥٦ م •

— ١٢٣ —

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٧٣٢ / ١٣٣٢ م •
(٤٠) نهاية الأرب فى فنون الأدب — ج ٣١ مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة •

اليونينى : قطب الدين أبو الفتح موسى بن سليمان ت ٨٧٣٦ / ١٣٣٦ م •
(٤١) ذيل مرآة الزمان — الجزء الأول والثانى — مطبعة الدكن
١٣٧٤ هـ — ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٤ — ١٩٥٥ م •

ثانياً — المراجع العربية :

د. السيد الباز العرينى :

- ١ — الأيوبيون — دار النهضة العربية — بيروت •
- ٢ — المماليك — طبع بيروت •

د. حسنين ربيع :

- ٣ — دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية •
- دار النهضة العربية بالقاهرة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م •

د. حكيم أمين عبد السيد :

- ٤ — قيام دولة المماليك الثانية • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م •

د. حياة ناصر الحجى •

- ٥ — العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق « حوليات
كلية الآداب — جامعة الكويت » الحولية الثانية ١٤٠٠ هـ /
١٩٨١ م •

د. سعيد عاشور :

- ٦ — د. الحركة الصليبية — جزءان الطبعة الأولى ١٩٦٣م *
- ٧ — العصر المماليكى فى مصر والشام — الطبعة الأولى دار النهضة العربية ١٩٦٥م *
- ٨ — الظاهر بيبرس — المؤسسة المصرية للعلمة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م *
- ٩ — الأيوبيون والمماليك *

د. طرخسان :

- ١٠ — مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة *
- دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٠م *

د. العيادى : أحمد مختار :

- ١١ — قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام — الاسكندرية ١٩٨٢م *

ثالثا : المراجع الأوربية :

1 — Ayalon , D . ,

Le Regiment Bahriya dans L'armee Mamelouke, No. III, in « Studies on the Mamluks of Egypt — 1250 — 1517 », London 1977.

2 — ——— . ,

The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, No., II, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 » London 1977.

3 ————— . ,

Studies on the Structure of the Mamluk army,
No. I, in « Studies on the Mamluks of Egypt
1250 — 1517 », London 1977.

4 ————— . ,

The Circassians in the Mamluk Kingdom, No.
IV, in « Studies on the Mamluks of Egypt,
1250 — 1517 », London 1977.

5 ————— . ,

The Plague and its effects upon the Mamluk
army, No. V in, « Studies on the Mamluks
of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

6 ————— . ,

Aspects of the Mamluk phenomenon Ayyub-
ids, Kurds and Turks, No. xb, in « The Mam-
luk military Society », Collected Studies,
London 1979.

7 ————— . ,

Names, Titles, Nisbas of the Mamluks No., IV,
in « The Mamluk military Society, Collected
studies .

8 ————— . ,

The European Asiatic steppe, A major reservoir
of power for the Islamic world, No. VIII, in
« The Mamluk military Society » Collected
studies, London 1979. .

د. سعيد عاشور :

- ٦ — د. الحركة الصليبية — جزءان الطبعة الأولى ١٩٦٣م .
- ٧ — العصر المالكي في مصر والشام — الطبعة الأولى دار النهضة العربية ١٩٦٥م .
- ٨ — الظاهر بيبرس — المؤسسة المصرية للعلمة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م .
- ٩ — الأيوبيون والمالكي .

د. طرخان :

- ١٠ — مصر في عصر دولة المالكي والبراكسة .
- دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٠م .

د. العيادي : أحمد مختار :

- ١١ — قيام دولة المالكي الأولى في مصر والشام — الاسكندرية ١٩٨٢م .

ثالثا : المراجع الأوربية :

1 — Ayalon , D . ,

Le Regiment Bahriya dans L'armée Mamelouke, No. III, in « Studies on the Mamluks of Egypt — 1250 — 1517 », London 1977.

2 — ————— . ,

The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, No. II, in « Studies on the Mamluks of Egypt 1250 — 1517 » London 1977.

3 — — — — . .

Studies on the Structure of the Mamluk army.
No. I, in « Studies on the Mamluks of Egypt
1250 — 1517 », London 1977.

4 — — — — . .

The Circassians in the Mamluk Kingdom, No.
IV, in « Studies on the Mamluks of Egypt,
1250 — 1517 », London 1977.

5 — — — — . .

The Plague and its effects upon the Mamluk
army, No. V in, « Studies on the Mamluks
of Egypt 1250 — 1517 », London 1977.

6 — — — — . .

Aspects of the Mamluk phenomenon Ayyub-
ids, Kurds and Turks, No. xb, in « The Mam-
luk military Society », Collected Studies,
London 1979.

7 — — — — . .

Names, Titles, Nisbas of the Mamluks No., IV,
in « The Mamluk military Society, Collected
studies .

8 — — — — . .

The European Asiatic steppe, A major reservoir
of power for the Islamic world, No. VIII, in
« The Mamluk military Society » Collected
studies. London 1979.

9 — ——— . ,

The system of payment in Mamluk military
Society, No. VIII, in « Studies on the Mam-
luks of Egypt » 1250 — 1517.

10 — Browne ,

Atiterary History of Persia vol. III, The Tartar
dominion 1265 — 1502 Cambridge university
Press 1951.

11 — Cambridge ,

Cambridge History of Iran, vol. 5., edited by
J. A. Boyle, the university Press 1968.

12 — De Mi Gnanelli ,

Assensus Barcoch, in « Arabica vol. 6 —
1959 ».

13 — Heyd ,

Histoire du Commerce du Levant au moyen
Age, Tome, II.

14 — Howorth ,

History of the Mongols, Part II, III, London
1880 — 1888.

15 — Grousset, R .,

L'empire Mongole, Paris 1941 .

16 — ——— . ,

L'empire des steppes, Paris 1948.

17 — Lane Poole, S.,

History of Egypt in the middle ages, London
1936.

18 — Muir, W .,

The Mamluks or slave Dynasty of Egypt . ,
Amsterdam 1968.

19 . . Villehardouin and D. Joinville,

Memoirs of the Crusades, Joinvills cronicle
of the crusade of St. Lewis, Trans., Sir frank
Mar Zials, Londls, London 1965.

20 — Wiet ., G.

L'Egypt arabe .

21 — William F. Tucker,

Natural disasters and the Peasantry in Mam-
luk Egypt, in « Journal of the economic and
Social history of the Orient, vol. XXIV, 1981.

مطبعة المجمع العلمي
٢٠٢ شارع السيرة النبوية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٢٠٤
الترقيم الدولي ٩ - ٠٤٠٣ - ٠٤ - ١٧٧

